بول لافارج

# الحق في الكسل

ترجمة : محمد حسونة

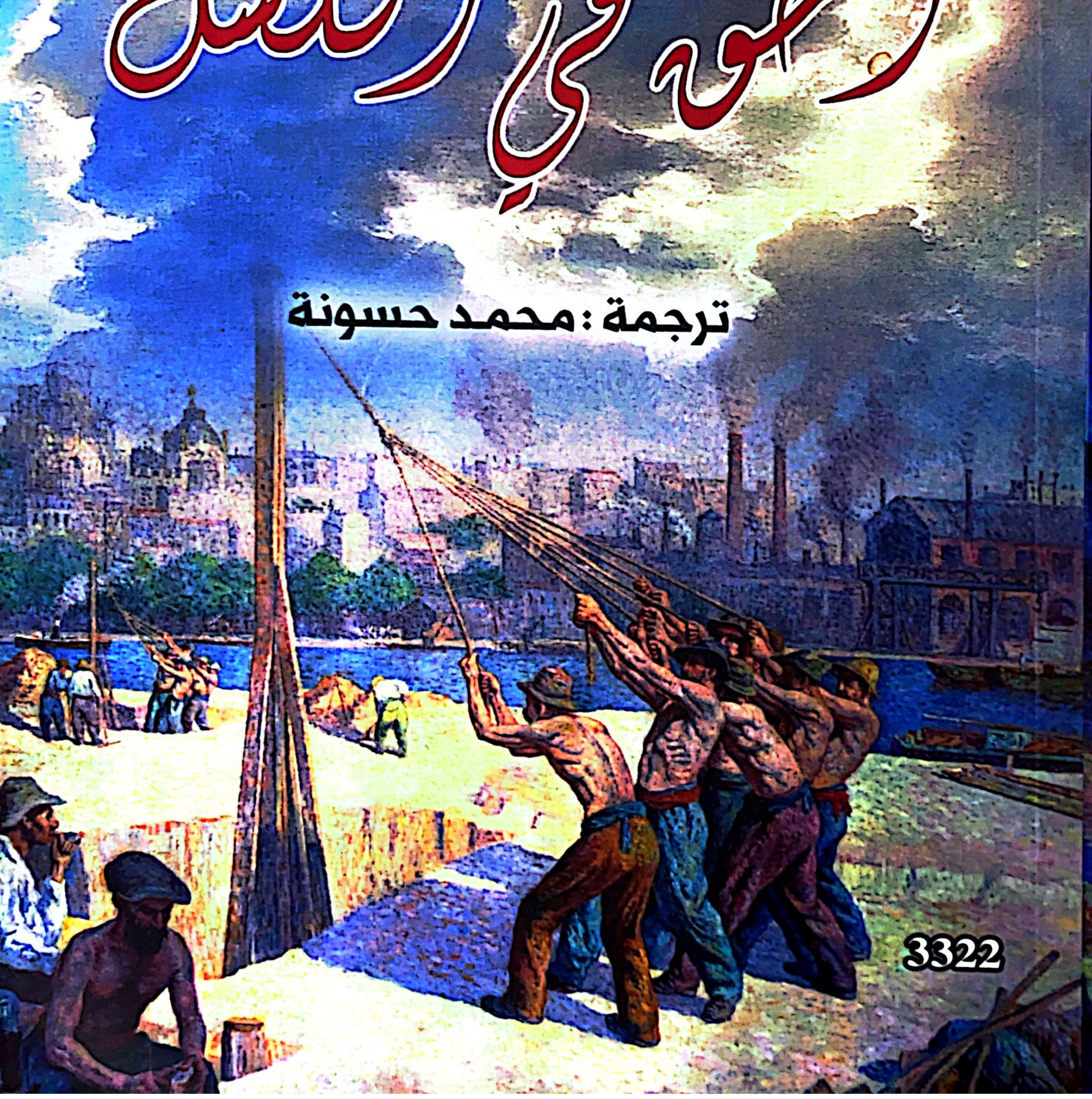

# الحق في الكسل

تأليف : بول لافارج
ترجمة: محمد حسونة

2023

Scanned with CamScanner

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: كرمة سامى

- العدد: 3322
- الحق فى الكسل
- بول لافارج
- محمد حسونة
- الطبعة الأولى 2023
- التصحيح اللغوى: أحمد نزيه

هذه ترجمة كتاب:
Le droit à la paresse
Par: Paul Lafargue
Publié en 1883

رقم الإيداع: ٢٠٢٣/٩٢٨٨ الترقيم الدولى: 978-977-92-2564-7

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

Scanned with CamScanner

# المحتويات


تمهيد ..... 5

الفصل الأول: عقيدة كارثية ..... 7

الفصل الثانى: بركات العمل ..... 11

الفصل الثالث: ما يتبع الإفراط فى الإنتاج ..... 25

الفصل الرابع: نحو عصر جديد، أغنية جديدة ..... 39

الفصل الخامس: ملحق ..... 45

خطاب لنين فى جنازة بول ولورا لافارج ٣ ديسمبر ١٩١١ 51




Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

## تمهيد:

## العودة إلى قائمة الموضوعات:

قال أدولف تييه A. Thiers في أثناء حضوره لجنة التعليم الابتدائي لعام ١٨٤٩: "أريد أن أجعل تأثير رجال الدين قويًا للغاية، ذلك لأني أعتمد عليهم في نشر هذه الفلسفة الفاضلة التي ترشد الإنسان إلى أنه وُجد على هذه الأرض لكي يعاني، وذلك في مقابل فلسفة أخرى تقول للإنسان: "استمتع". لقد أراد أدولف تييه -بذلك- تشكيل مدونة أخلاقية للطبقة البرجوازية التي تجسد الأنانية الشرسة والذكاء المحدود.

وعلى الرغم من أن البرجوازية كانت تحارب النبلاء، المدعومين من جانب رجال الدين، وتدعو إلى حرية الاعتقاد، بل والإلحاد؛ فإنها ما إن أحرزت انتصارًا في هذا الصدد، حتى غيرت النغمة والوتيرة. واليوم، عقدت هذه الطبقة البرجوازية العزم على دعم التفوق الاقتصادي والسياسي بالتوجه الديني. ففي القرنين الخامس عشر والسادس عشر، استعادت الطبقة البرجوازية- بقوة- التقاليد الوثنية ومجدت الجسد وشهواته التي تدينها المسيحية. وفي أيامنا هذه، بعدما أُتخِمَت الطبقة البرجوازية بالأمـــلاك والملذات؛ راحت تستنكر تعـــاليم المفكرين من أتباع فرانسوا رابليـــه les Rabelais، أو دنيس ديدرو les Diderot، وتعظ العمال وتحثهم على الزهد والتعفف. وهكذا صارت الأخلاقيات الرأسمالية أشبه بمحاكاة ساخرة للأخلاق المسيحية على نحوٍ يدعو للرثاء، إنها لعنة تغلغلت إلى أجساد العمال؛ فالمثال الذي روجت له البرجوازية هو تقليص حاجات المنتج إلى أدنى حد، وإلغاء سعادته وشغفه، واختزاله في دور الآلة التي تنتج بلا توقف أو رحمة.

كان يجب على الاشتراكيين الثوريين أن يعاودوا الكفاح الذي خاضه الفلاسفة والبرجوازيون المشاكسون؛ كان عليهم تصعيد النبرة والهجوم على

الأخلاق والنظريات الرأسمالية، وهدم الأفكار المسبقة المزروعة من قِبَل الطبقة الحاكمة في عقول الطبقة العاملة المدعوة للتحرك. يجب عليهم أن يؤكدوا في مواجهة كل صراصير الأخلاقيات، أن الأرض ستكف عن أن تكون واديا لدموع العمال، وأن في المجتمع الشيوعي المستقبلي الذي سوف يؤسسونه "على نحوٍ مُسالم إن أمكن، وبدون عنف"، سوف تكون كل شهوات البشر مُلَجَّمة، لأنها "جميعها طيبة بطبيعتها، إذن ما من شيء علينا أن نتفاداه اللهم إلا الاستخدام السيئ أو المُفرط[1] لهذه الشهوات"، وهو ما لن يتم تفاديه إلا عن طريق نقيضه الطبيعي المتوازن، وتنمية هذا التناغم الخاص بمجموع الأعضاء؛ لأنه كما يقول دكتور بيدوه Beddoe: "ما من جنس يصل إلى حده الأقصى في تطوره الفيزيائي، إلا بوصوله إلى أعلى مستوى له من حيث النشاط والصرامة الأخلاقية[2]"، وهذا هو أيضا، رأي عالم الطبيعة الكبير، شارل داروين Charles Darwin[3]

مقال بعنوان "نقض الحق في العمل"، قمت بإعادة نشره مصحوبا ببعض الهوامش الإضافية، في مجلة ليجاليتي L'Egalité الأسبوعية عام ١٨٨٠، العدد الثاني.

بول لافارج Paul Lafargue

سجن سانت – بيلاجي Sainte-Pélagie، 1883 .

---

(١) خطاب، تم إلقاؤه في الجمعية الدولية للدراسات التطبيقية للاقتصاد الاجتماعي في باريس، مايو ١٨٦٣، وتم نشره في مجلة إيكونوميست الفرنسية في ذات الحقبة. L`Economiste.

(2) Docteur DEDDOE, Memoirs of the Anthropological Society.

(3) Charles Darwin, Descent of man.

# الفصل الأول
# عقيدة كارثية

**فلنتكاسل في كل شيء، إلا في الحب والشراب، والكسل.**

**ليسينج Lessing**

## عودة إلى قائمة المواد

نوبةٌ غريبةٌ من الجنون أصابت طبقات العمال في الأمم التي تسودها الحضارة الرأسمالية؛ ترتب على هذا الجنون العديد من المآسي الفردية والمجتمعية التي أسفرت –ومنذ قرنين من الزمان– عن عذابات الإنسانية البائسة. يتمثل هذا الجنون في حب العمل، بل؛ الشغف المميت بالعمل، المدفوع إلى حد الإرهاق التام للقوى الحيوية للفرد وذريته. وبدلاً من التصدي لهذا الانحراف العقلي، راح الكهنة وعلماء الاقتصاد وعلماء الأخلاق، يتوجون العمل بهالة مقدسة، إنهم رجال فاقدو البصر والبصيرة ومحدودون، أرادوا أن يكونوا أكثر حكمةً من ربهم، رجال ضعفاء وحقراء، أرادوا إعادة صياغة ما لعنه الله؟ أما أنا، وبوصفي لا أُقرّ بأنني مسيحي، اقتصادي أو أخلاقي، فأدعوهم للاحتكام لربهم، وإعمال أخلاقياتهم الدينية والاقتصادية وحرية الفكر عند النظر إلى التَبِعات المروعة للعمل في المجتمعات الرأسمالية.

ففي المجتمع الرأسمالي، العمل هو سبب كل انحطاط فكري، وكل تشوه عضوي. قارن الدم النقي للخيول في اصطبلات روتشيلد، والتي ترعاها مجموعةً من الخدم المَهرة، بالبهائم الثقيلة في المزارع النورماندية، التي تحرث الأرض،

تبذر السماد وتجني الحصاد. انظر إلى النبيل الذي لم يتم إفساده بعد على يد سماسرة التجارة وتجار الدين، بعقيدة العمل، وانظر، عن بعدٍ، إلى عبيد الآلات البائسين[1].

---

(١) يقف المكتشفون الأوروبيــون مذهولين، أمام الجمال البدني للرجال والشعوب البدائية وهاماتهم الفخورة، التي لم تتلوث بما أطلق عليه بابينج Paeppig "النفس المسمومة بالحضارة". نتكلم هنا عن السكان الأصليين لجزر المحيط، كتب اللورد جورج كامبل Campbell Georges يقول: "لا يوجد شعب على وجه الأرض يضرب أكثر فأكثر لأول وهلة. بشرتهم ذات صبغة نحاسية طفيفة، شعورهم ذهبية ومجدولة، وجوه جميلة وفرحة، في كلمةٍ واحدة، كل فرد منهم يشكل بذاته عينة جديدة ورائعة لجنس الإنسان *homo*، يمنحنا مظهرهم الفيزيقي انطباعا بأنهم جنس أرقي من جنسنا. كان المتحضرون في روما القديمة، القياصرة، أتباع تاسيتس Les Tacite، يبدون الإعجاب نفسه أمام الجرمان من القبائل الشيوعية الذين غزوا الإمبراطورية الرومانية. – ومثل تاسيت، كان سالفين Salvien، كاهناً عاش في القرن الخامس، وأطلقَ عليه سيد الأساقفة، اتخذ من البرابرة مثلاً أعلى للمدنيين والمسيحيين: "نحن زناة وسط البرابرة، هم أكثر عفة منا. بالإضافة إلى ذلك، البرابرة مجروحون من فجورنا وأعمالنا الفاسقة. لا يعاني القوطيون ممن يعيشون بينهم من الفاسقين من أمتهم؛ وحدهم الرومان فيما بينهم، بتمييزهم التعيس لجنسيتهم واسمهم من حقهم أن يكونوا فاسقين. (كان حب الغلمان شائعاً بنسبة كبيرة فيما بين الوثنيين والمسحيين...) وكان المضطهدون يلوذون بالبرابرة بحثاً عن الإنسانية والحماية". (*De Gubernatione Dei.*) – لقد أفسدت الحضارة القديمة والمسيحية الناشئة برابرة العالم القديم، تمامًا كلما شاخت المسيحية فى ظل الحضارة العصرية الرأسمالية، فإن ذلك من شأنه استمرار التأثير فى إفساد متوحشى العالم الجديد.

يقول فريدريك لو بلاي M. F. Le Play –الذي يجب أن نعترف بمهارته في الملاحظة– ولن رفضنا ما توصل إليه من نتائج اجتماعية، شابتها الخيرية المسيحية، في كتابه العمل الأوروبيون (١٨٨٥): "يميل الباشكريون Bachkirs إلى الكسل (الباشكريون هم قساوسة شبه رحالة في الجانب الآسيوي لجبال الأورال)؛ ترف الحياة البدوية، وعادات التأمل التي تولد عند الأفراد الموهوبين تضفي على هؤلاء طرقًا مميزة، ذكاء راقيًا وبدرجة تلاحظ نادراً في نفس المستوى الاجتماعي في حضارة أكثر تقدماً... أكثر ما يجعلهم يشمئزون؛ هي أعمال الزراعة؛ إنهم يفعلون بالأحرى كل شيء عدا تقبلهم مهنة المزارع. "الزراعة هي في الواقع أول ظهورٍ للعمل الشاق في الإنسانية. على حسب التقاليد التوراتية، فأول مجرم قابيل، كان مزارعاً.

فإذا ما رغبنا في العثور في قارتكم المتحضرة أوروبا، على أثر جمالي فطري للإنسان، يجب علينا أن نذهب لنبحث عنه لدى الأمم التي لم تؤد الأحكام الاقتصادية المسبقة فيها، إلى نزع كراهية العمل. إسبانيا التي، للأسف! تسير نحو الانحطاط، ما زال يمكنها أن تتباهي بأن ما تمتلكه من مصانع أقل مما نمتلكه نحن من سجون وثكنات؛ ولكن الفنان يسعد بتأمله للأندلسي الجريء المقدام، أسمر اللون مثل الكستناء، مستقيم القامة ومرن مثل عودٍ من الفولاذ؛ لديه قلب رجل يختلج عند سماع الشحاذ، الذي يرتجف تحت غطائه المرقع، ويتعامل كصديق لدوقات أوسونا ducs d`Ossuna. بالنسبة للإسباني، فإن الحيوان البدائى لم يُمتهن، والعمل هو أسوأ استعباد.

في العصر الذهبي للإغريق، هم أيضا، كانوا يحتقرون العمل: العبيد وحدهم هم الموكلون بالعمل: لم يعرف الرجل الحر سوى التمرينات الجسدية وألعاب الذكاء. لقد كان هذا، أيضا، الزمن الذي كان المرء يمشي فيه ويتنفس وسط شعب أرسطو، فيدياس Phidias وأريسطوفان Aristophane ؛ لقد كان هذا الزمن الذي دحرت فيه زمرة من الشجعان، في ماراثون Marathon، فرق آسيا، التي سرعان ما سيحتلها الإسكندر.

كان فلاسفة العصور القديمة يدرسون ظاهرة احتقار العمل، هذا الانحدار للإنسان الحر؛ أما الشعراء فكانوا يتغنون بالكسل، هدية الآلهة:

أيا موليبا، الله وهبنا هذا الكسل(٢)[١].

المسيح، في خطبته من على الجبل، بشر بالكسل:

"ولماذا تهتمون باللباس، تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو، لا تتعب ولا تغزل. ولكن أقول لكم إنه ولا سليمان، في كل مجده، كان يلبس كواحدة منها" إنجيل متى، الإصحاح السادس.

---

(١) أو موليبا O Mélibé، إله امنحنا هذا الكسل. VIRGILE, Bucoliques (انظر الملحق).

يهوه Jéhovah، الإله ذو اللحية القاسي، منح لعباده المثل الأعظم للكسل؛ بعد ستة أيام من العمل، استراح للأبد(١).

في المقابل، نتساءل أي الأجناس يكون العمل بالنسبة لهم بمثابة ضرورة عضوية؟ سكان إقليم أوفيرنيا Auvergnat؛ الاسكتلندي Ecossais، هؤلاء الأفيرنيون في الجزر البريطانية؛ الجالجوس Gallegos ، هؤلاء الأفيرينيون الإسبان؛ بوميرانيان Pomeraniens، هؤلاء الأفيرنيون الألمان؛ الصينيون، هؤلاء الأفرينيون الآسيويون. في مجتمعنا، من هم الفئات التي تحب العمل من أجل العمل؟ هل هم الزراع المالكون، البرجوازيون الصغار، هؤلاء المنحنون على بساط أراضيهم، أم الآخرون القابعون في محلاتهم، مثل فأرٍ محنيٍ في قبو محله، ولا ينهض أبداً، لوهلة، لتأمل الطبيعة على هواه.

ورغم ذلك، فإن البروليتاريا، أكبر طبقة تضم كل منتجي الدول المتحضرة، هي الطبقة التي، بتحريرها لنفسها، ستتحرر البشرية من العمل الشاق، وستحول الحيوان الإنساني إلى كائن حر. لقد خانت طبقة البروليتاريا غرائزها، وتجاهلت مهمتها التاريخية، انحرفت عن مسارها وصارت نهباً لدوجما عقيدة العمل. ومن ثم كانت العاقبة قاسية ورهيبة؛ إذ تتبع كل المآسي الفردية والمجتمعية من شغفها بالعمل.

---

(١) إنجيل متى، الإصحاح السادس.

# الفصل الثاني
# بركات العمل

## عودة إلى قائمة المواد

في عام ١٧٧٠، ظهر في لندن، مخطوط لكاتب مجهول بعنوان: مقال عن التبادل والتجارة[١]، مما أثار، في هذه الفترة، بعض الضجيج. كان مؤلف المخطوط، الإنساني العظيم، ساخطا على "جمهور العمال في إنجلترا الذين ترسخت لديهم فكرة، أن كل إنجليزي، ومن ثم كل الإنجليز لديهم بالميلاد، امتياز كونهم أكثر حرية واستقلالاً من عمال أي بلد أوروبي آخر. يمكن أن يكون لهذه الفكرة جدوى بالنسبة للجنود؛ إذ إنها تستنفر شجاعتهم؛ ولكنها أقل نفعا بالنسبة لعمال المصانع الأقل اغترارا بأنفسهم. إذ لا ينبغي للعمال أبداً أن يكونوا مستقلين عن رؤسائهم. إنه أمر خطير جداً أن ندفع بشغف وافتتان كهذا في دولة تجارية مثل دولتنا، التي يكون فيها، على الأرجح، كل سبعة أشخاص من بين كل ثمانية في المجتمع، لا يحوزون أي ملكية أو يملكون القليل. ولن يكون علاج هذا الأمر متاحاً على نحو كامل، ما دام أن فقراء الصناعة لن يقبلوا العمل ستة أيام في الأسبوع من أجل الحصول على المبلغ نفسه الذي يجنونه من عمل أربعة أيام".

ومن ثم، منذ قرن مضى قبل عصر جيزو Guizot، كنا نبشر علنًا في لندن بأن العمل يحدُّ من العواطف النبيلة للإنسان.

"كلما انكب شعبي على العمل، انحسرت الرذائل"، هذا ما كتبه أوستيرود Osterode، في ٥ مايو ١٨٠٧، عن نابليون فى: أنا السلطة (...) وسوف ألتزم

بإصدار الأمر بأن يوم الأحد، في أثناء ساعات العمل، ستكون المحلات مفتوحة وسيعود العمال إلى أعمالهم."

من أجل استئصال الكسل وتنحية مشاعر الفخر والاستقلال التي تنشأ عنه، يقترح مؤلف "المقال عن التجارة" حبس الفقراء في منازل عمل مثالية (idealworkhouses)، منازل، سوف تصير "منازل إرهاب"، إذ يستمر العمل فيها ١٤ ساعة يومياً، وإذا ما طرحنا أوقات الغداء، ستبقى هناك ١٢ ساعة من العمل كاملة ووفيرة".

اثنتا عشرة ساعة عمل في اليوم، هذا ما يمثل الوضع المثالي لدى الصالحين وعلماء الأخلاق في القرن الثامن عشر. وهو وضع قد تجاوزناه في نهاية المطاف! إذ صارت ورش العمل العصرية بيوتاً مثالية للإصلاح، حيث نسجن فيها عددًا ضخماً من العمال، نفرض عليهم أعمالاً إجبارية تمتد من ١٢ إلى ١٤ ساعة، ليس فقط الرجال، بل النساء والأطفال أيضاً[1]! ويُقال إن أبناء أبطال الإرهاب هؤلاء قد تحلوا بدين العمل لدرجة قبولهم بعد ١٨٤٨، بالقانون الذي يحدد زمن العمل في المصانع بـــ ١٢ ساعة يومياً، ورفعوا شعارا ثوريا هو: الحق في العمل، إنه بالأحرى عار على البروليتاريا الفرنسية! فقط العبيد يمكن لهم أن يتقبلوا سفالة كهذه. كان لازماً أن يمر عشرون عاماً من الحضارة الرأسمالية على يوناني من عصر الأبطال حتى يتقبل إذلالاً كهذا.

---

(١) في أول مؤتمر خيرى عقد في بروكسل، في عام ١٨٥٧، حكى واحد من أغنى اصحاب مصانع الأثاث، بالقرب من ليل، وهو السيد سكريف M. Scrive، مع تصفيق أعضاء المؤتمر، والإحساس بأنبل مشاعر الرضا عن إنجاز المهمة قائلاً: نحن أدخلنا بعض الوسائل لإلهاء الأطفال. علمناهم الغناء في أثناء العمل، وعلمناهم، بالمثل، الحساب وهم يلعبون: هذا يلهيهم ويجعلهم يتقبلون بشجاعة هذه الاثنتا عشرة ساعة من العمل الضرورية من أجل مساعدتهم فى العثور على وسائل عيشهم." – اثنتا عشرة ساعة من العمل، وأي عمل! هذا الذي يفرض على أطفال لم يبلغوا بعد الاثنى عشر عاماً! – يأسف الماديون دائماً أنه لا يوجد جحيم يضم هؤلاء المحسنين، جلادي الأطفال!

وإذا ما كانت آلام العمل الإجباري، وإذا كانت عذابات الجوع قد نالت من البروليتاريا، وتفاقمت وتكاثرت عليهم بصورة أكثر من جراد الإنجيل، فإن البروليتاريا هي التي استدعتها.

هذا العمل الذي طالب به العمال في يونيو ١٨٤٨ وأسلحتهم في أيديهم، فرضوه على أسرهم؛ من بعد، وهكذا قدموا، نساءهم وأطفالهم، إلى بارونات الصناعة، ودمروا منزلهم العائلي؛ بأيديهم، لقد أنهكوا زوجاتهم؛ البائسات، الحوامل منهن واللاتي ترضعن أطفالهن، وجب عليهن أن يذهبن إلى المحاجر والمصانع؛ مما أضعف عمودهن الفقري وأرهقت أعصابهن. بأيديهم، حطموا حياة وبأس أطفالهم – العار للبروليتاريا! أين هؤلاء النساء الثرثارات الفضوليات اللاتي راهنت عليهن حكاياتنا الخرافية القديمة، الجريئات، الصريحات، عاشقات النبيذ؟ أين هؤلاء السيدات السعيدات، دائماً تقفزن، دائماً تطبخن، دائماً تغنين، دائماً تزرعن الحياة وتجلبن الفرح، يَلدن، بدون ألم، أطفالاً أصحاء وأشداء؟...

ولدينا اليوم، بنات ونساء المصانع، زهور ضعيفة بألوان باهتة، مُرغَمَات، ذوات مِعْدَة فارغة، وأعضاء ضعيفة!.... لم يعرفن أبداً المتعة الغامرة، ولن يستطعن أن يروين برشاقة كيف كسرن صدفاتهن! .

وأطفالك؟ ١٢ ساعة عمل للأطفال. يا للمأساة! – ولكن أمثال جول سيمون Jules Simon في أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية، وأمثال الجرميين التابعين للمذهب اليسوعي Germinys de la Jesuiterie، ما أمكن لهم أن يبتكروا رذيلة أكثر غباءً تنال من ذكاء الأطفال، وأكثر إفسادًا لفطرتهم، وأكثر تدميرًا لأجسادهم، من رذيلة الحث على العمل في هذه الأجواء المَعيبة للورشة الرأسمالية.

إن عصرنا، كما يُقال، هو عصر العمل؛ ولكنه، في الواقع، عصر المعاناة والبؤس والفساد.

ومع ذلك، فإن الفلاسفة، أي الاقتصاديين البرجوازيين، من "أوجست كونت Auguste Comte" المرتبك بشكل حاد، حتى "لوروا- بوليو" Leroy-Beaulieu

الذي يبعث على السخرية؛ والأدباء البرجوازيين، من رومانسية فيكتور هوجو Hugo Victor التي تتسم بالدجل، حتى بول دو كوك Paul de Kock الغامض، كلهم قد تغنوا بهذه الأغنيات المشينة على شرف إله التقدم، الابن الأكبر للعمل، وعند الاستماع إليهم، نحسب أن السعادة سوف تسود الأرض، بل لعلنا قد شعرنا بالفعل بقدوم هذه السعادة. لقد راحوا يبحثون في القرون الماضية عن الغبار والبؤس الإقطاعي، ليبشروا بمسرات العصر الحالي، هل أرهقونا، هؤلاء الراثنون عن عصر العمل، والذين كانوا في السابق يعملون في خدمة اللوردات الكبار، هم أنفسهم قد أصبحوا الآن بأقلامهم خُدام البرجوازية التي تدفع لهم بسخاء. هل أرهقونا مع الفلاح الفصيح لـ لابروبير La Bruyère ؟ حسناً! ها هي اللوحة التشكيلية المشرقة لمباهج البروليتاريا في عام ١٨٤٠ عام التقدم الرأسمالي، والتي رسمها أحدهم، وهو الدكتور فيليرميه Villermé، عضو المعهد، وهو الشخص نفسه الذي كان، في عام ١٨٤٨، جزءًا من مجمع العلماء (ثير Thiers، كوزين Cousin، باسي Passy، بلانكي Blanqui)، وهو أيضاً من أذاع بين الجماهير كل حماقات الاقتصاد والأخلاق البرجوازية .

فى حديثه عن التصنيع في الألزاس Alsace، يتحدث الدكتور فيلرميـــه Dr Villermé، قائلاً: إنها ألزاس كيستنر Kestner، دولفوس Dollfus، وهؤلاء هم نخبة الأعمال الخيرية الصناعية والنزعة الجمهورية. ولكن قبل أن يضع الطبيب أمامنا صورة لبؤس البروليتاريا، دعونا نستمع إلى الصانع الألزاسي، السيد ميج M. Th. Mieg، فى بيت دولفوس Dollfu، وميج وشركاه Mieg et Cie، الذي يعبر عن أحوال الحرفيين من أرباب الصناعات القديمة:

"في مولوز، منذ خمسين عاماً (وتحديداً في عام ١٨١٣، عندما نشأت الصناعة الميكانيكية الحديثة)، كان العمال جميعهم أبناء البلد، يعيشون في المدينة والقرى المحيطة، وكلهم تقريبا، يملكون منازل، وغالبا، حقولا صغيرة"(١).

---

(١) خطاب ألقاه في الجمعية الدولية للدراسات العملية للاقتصاد الاجتماعي في باريس، في مايو عام ١٨٦٣ ، ونشر في مجلة الإيكونوميست الفرنسية في الوقت نفسه.

لقد كان هذا هو العصر الذهبي للعامل. لكن في هذا الوقت، لم تكن الصناعة الألزاسية قد غمرت العالم بسلعها القطنية، ولم تجلب الملايين لدولفوس Dolfus وكيوشلين Koechlin. ولكن بعد خمس وعشرين سنة، عندما زار فيلرميه Villermé الألزاس، كانت الآلة الحديثة للورشة الرأسمالية، قد غزت البلاد، وزاد شرهها للعمل البشري، وهكذا انتزعت هذه الورشة الرأسمالية العمال من منازلهم، لتتمكن من التحكم في العمال بشكل أكبر، والتعبير بشكل أفضل عن العمل الذي يقومون به. أقبل العمال بالآلاف تلبية لنداء صفير الآلة.

"قال فيليرميه Villermé إن عدداً كبيراً، ما بين خمسة آلاف إلى سبعة عشر ألفًا من العمال، اضطروا، بسبب ارتفاع قيمة إيجار السكن في مدينة العمل، أن يسكنوا في القرى المجاورة، البعض منهم عاش على بعد فرسخين وربع (حوالي ٩ كيلومترات) من المصنع الذي يعملون به.

في مولوز Mulhouse، وفي دورناخ Dornach ، يبدأ العمل في الساعة الخامسة صباحاً و ينتهي في الساعة الثامنة مساءً، صيفاً وشتاءً على السواء (...) يجب أن تراهم وهم قادمون كل صباح إلى المدينة، ويغادرونها كل مساء، من بينهم العديد من النساء باهتات البشرة، واهنات البنية، يمشين حافيات الأقدام في الوحل، في غياب المظلات، لا يحمين رؤوسهن، عند هطول الأمطار أو الثلوج، إلا بأطراف التنورات لحماية وجوههن ورقابهن. وعدد أكبر من الأطفال الصغار، ليسوا أقل قذارة ولا ضعفاً من سابقيهم من الكبار، يلتحفون بخرقة متسخة بكل الزيوت التي تتساقط عليهم أثناء عملهم. هؤلاء الأطفال، يحمون أنفسهم بشكل أفضل من المطر بسبب ملابسهم الزيتية الواقية، ولكنهم لا يملكون، مثل النساء اللاتي تحدثنا عنهن للتو، سلالاً تحتوي على تموين اليوم؛ ولكنهم يحملون في أيديهم، أو يخبئون تحت ستراتهم، قطعة الخبز التي يجب أن تسد رمقهم حتى موعد عودتهم إلى ديارهم.

وهكذا، مع الشقاء والتعب من يوم طويل على نحو بالغ، فبعد ما لا يقل عن ١٥ ساعة عمل، يتفاقم الألم، هذا إذا ما حسبنا وقت الذهاب والعودة المتكررة والمؤلمة جدا التي يقطعها هؤلاء البؤساء من وإلى منازلهم للعمل في المصنع. ومن ثم، فهم يصلون، في المساء، إلى منازلهم منهكين، لديهم حاجة ملحة للنوم. في اليوم التالي يخرجون، قبل أن يحصلوا على قدر كاف من الراحة، ليكونوا في ورشة العمل ساعة الافتتاح".

ها هي الآن الأكواخ القذرة التي يُحشر فيها أولئك الذين عاشوا في المدينة:

"رأيت في مولوز Mulhouse، في دورناخ Dornach وفي البيوت المجاورة، هذه المساكن البائسة التي تنام فيها عائلتان، كلٌ منهما في ركن، على فراش من القش مُلقَى على أريكة مربعة قائمة فوق لوحين من الخشب ... هذا البؤس الذي يعيش فيه عمال غزل القطن في إقليم أعالي الراين Haut-Rhin عميق لدرجة أنه يؤدي إلى هذه النتيجة المحزنة: ففي الوقت الذي يبلغ فيه أطفال عائلات أصحاب الورش والتجار ومديري المصانع عامهم الحادى والعشرين، يواري الثرى نصف عدد هؤلاء الأطفال قبل أن يبلغوا سن العامين اللذين يقضونهما في كنف أسر النساجين وعمال مغازل القطن".

وفي معرض حديثه عن دولاب ورشة العمل، يضيف فيليرميه Villermé:

" لسنا، هنا، بصدد عمل أو مهمة، إنه تعذيب، يلحق بالأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ستة وثمانية أعوام (...) وهذه هي المحنة المديدة التي يعاني منها، أساساً، العاملون في مغازل القطن، كل يوم".

وفيما يتعلق بساعات العمل، لاحظ فيليرميه Villermé أن المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة يعملون لمدة عشر ساعات فقط يوميا، بينما يعمل عبيد جزر الأنتيي Antilles تسع ساعات في المتوسط، بينما يوجد في فرنسا التي قادت ثورة ٨٩، والتي أعلنت حقوق الإنسان الطنانة Droits de l`homme ما هو أبهى،

إذ يصل يوم العمل في المصانع إلى ست عشرة ساعة، ويُسمح للعمال بساعة ونصف، فقط، لتناول وجبات الطعام" (١)

يا للإجهاض البائس للمبادئ الثورية البرجوازي !، يا للحداد المفجع على موت إله التقدم الذي تم التبشير به! لقد هلّلَ محبو الإنسانية للمحسنين، الذين من أجل أن يزدادوا ثراءً، وهم ينعمون بالخمول، وفروا عملاً للفقراء. لكن الأنكى من نشر الطاعون وتسميم الينابيع، هو إقامة مصنع وسط منطقة سكنية ريفية، وفرض التصنيع عليها، وداعا، إذن، للصحة والحرية ؛ وداعًا للفرح ولكل ما يجعل الحياة جميلة وتستحق أن تُعاش(٢).

ويعاود الاقتصاديون تكرار ما يقولونه للعمال: العمل، مزيد من العمل لزيادة الثروة الاجتماعية! ومع ذلك، يجيب خبيرٌ اقتصادي، هو ديستوت دي تراسي Destut de Tracy، على السؤال التالي: "إن الدول الفقيرة هي تلك الأماكن التي يتمتع الناس فيها على سجيتهم المريحة؛ أما الدول الغنية، فهي تلك التي يكون الناس فيها فقراء بشكل اعتيادي".

---

(١) هناك لوحة فيلرميه LR Villermé، لوحة تصور الحالة المادية والمعنوية للعمال في مصانع القطن والصوف والحرير (1840). لم يكن ذلك بسبب أن دولفوس، وكوشلين وغيرها من المصنعين الألزاسيين كانوا من الجمهوريين، الوطنيين، والبروتستانت المحسنين، عاملوا عمالهم بهذه الطريقة، كما أن السادة بلانكي، والأكاديمي ريباود، النموذج الأولي لجيروم باتوروت، وجول سايمون، والسياسي جاك، نفس المجاملة اللطيفة للطبقة العاملة، من الرأسماليين الكاثوليك والملكيين في ليل وليون هذه فضائل رأسمالية تتناغم مع بعضها بعضًا بطريقة سياسية ودينية.

(٢) الهنود من قبائل البرازيل القتالية يقتلون مقعديهم ورجالهم المسنين؛ يظهرون تعاطفهم من خلال وضع حد لحياة لم تعد تبهجها المعارك والمهرجانات والرقصات لقد قدمت جميع الشعوب البدائية براهين على المودة هذه: "بحر قزوين) "هرودوت" (وكذلك فى حضارة ونز من المانيا و"السلت من بلاد الغال ."حتى في الكنائس السويدية، حتى في الآونة الأخيرة، كانت هناك صولجانات معروفة باسم الصولجانات العائلية، والتي عملت على تحرير الوالدين من أحزان الشيخوخة هكذا نرى كيف تتدهور البروليتارية الحديثة حتى تتقبل بصبر بؤس العمل المزعج!

وتابع تلميذه شيربوليه Cherbuliez قائلاً:

"إن العمال أنفسهم، من خلال تعاونهم في زيادة وتراكم رأس مال الإنتاج، يساهمون في الحدث الذي، عاجلاً أم آجلاً، حتماً سوف يحرمهم من جزء من رواتبهم".

- إلا أن خبراء الاقتصاد وقد أصابهم الصمم والبلاهة من فرط صياحهم وهم يرددون: العمل، العمل على الدوام للحصول على الرفاهية!. وباسم التسامح المسيحي، ينشد كاهن الكنيسة الإنجيلية، الكاهن تاونشيند Townshend: اعملوا، اعملوا ليل نهار، بالعمل سوف يزداد بؤسك، وبؤسك سوف يعفينا من إجباركم على العمل بقوة القانون .إن فرض العمل بالقانون "مؤلم للغاية، ويتطلب الكثير من العنف، ويتسبب في الكثير من الضجيج؛ في حين أن الجوع، على النقيض من ذلك، ليس مجرد ضغط سلمي وصامت وممتد، ولكنه، بوصفه دافعًا طبيعيًا للعمل والصناعة، يستثير، أيضاً، أعظم الجهود".

اعملوا، اعملوا، يا طبقة البروليتاريا، حتى تزيدوا من الثروات الاجتماعية ومن مآسيكم الفردية؛ اعملوا اعملوا، بحيث تصبحون أكثر فقراً، وتتوفر لكم أسباب أكثر للعمل وللبؤس، هذا هو القانون العنيد للإنتاج الرأسمالي الذي لا يرحم.

بسبب إرهاف السمع لكلمات الاقتصاديين الماكرة الزائفة، سلَمَت البروليتاريا الجسد والروح لرذيلة لعمل، وبدت وكأنها تحفز مسيرة المجتمع كله صوب هذه الأزمات الصناعية والتي تتمثل في فرط الإنتاج، مما قد يعصف بالكيان الاجتماعي كله، ويصيبه بحالة من التشنج.

بعد ذلك، ونظراً لوجود فيض كبير من السلع ونقص في القوة الشرائية، سوف تغلق ورش العمل، وسوف يصيب الجوع جموع العمال بسياطه. إن العمال المهووسون بدوجما العمل لا يعلمون أن الإفراط في العمل الذي عانوا منه خلال فترة الازدهار المفترض هو سبب بؤسهم الحالي، وبدلاً من أن يتسابقوا نحو صوامع القمح ويصرخون: "نحن جائعون، نريد أن نأكل! ... صحيح، أننا لا نملك

فلسًا واحدًا، ولكن ومع كوننا مُعدمين، نحن الذين حصدنا القمح وجمعنا العنب...".
وبدلاً من محاصرة محلات السيد بونيه دو جوريو M.Bonnet de Jujurieux مخترع الأديرة الصناعية، والصياح في وجهه: "سيد بونيت M. Bonnet ها هم العاملات خاصتك، اللاتي يجدلن الحرير(١)، يثابرن على الغزل(٢) والنسيج. فإن هؤلاء الفتيات العاملات، يرتجفن في ملابسهن القطنية الرثة، التي يرثى لها اليهودي، وهن اللاتي نسجن الفساتين الحريرية للعاهرات في كل العالم المسيحي. هؤلاء الفتيات الفقيرات اللواتي يعملن ثلاث عشرة ساعة يوميًا، ليس لديهن الوقت للتفكير في التجمل، والآن، يعانين البطالة، ويمكن لهن أن يحدثن حفيفًا بالملابس الحريرية اللاتي عكفن على نسجها منذ نعومة أظفارهن، لقد كرسن أنفسهن لزيادة ثروتك، وعشن في تقشف وزهد. الآن وقعن في البطالة، ويردن الاستمتاع ببعض ثمار عملهن.

هيا، يا سيد بونيه Bonnet، سلِّم نسيج الحرير خاصتك، وليقدم السيد هارمل M.Harmel أنسجته القطنية، وليُرسل السيد بوييه كيرتييه M.Pouyer-Quertier مفارشه القطنية السميكة، أما السيد بينيه M.Pinet فعليه أن يقدم أحذيته لأقدامهن الصغيرة العزيزة الباردة والرطبة ... يرتدين ملابسهن من الرأس حتى أخمص القدم وفق الموضة، أنيقات، وسوف يجعلنك تستمتع بتأملهن هيا، لا داعي للمراوغة؛ أنت صديق للبشرية، أليس كذلك، وفضلاً عن ذلك، مسيحي؟ ضع تحت تصرف عاملاتك الثروة التي تضخمت بفضلهن ومن لحمهن الحي. هل أنت صديق التجارة، فعلاً؟ حاول، إذن، أن تُيسّر حركة البضائع .ها هم مستهلكون مُتَاحُون، افتح لهم ائتمانا غير محدود، قدم لهم قروضا دون جد، عليك أن تعلم أنك مجبر على التفاوض مع تجار لا تعرفهم، لا هم من آدم ولا حواء، لن يمنحوك شيئاً، ولا حتى كوب من الماء. سوف تقوم العاملات خاصتك بما يمكنهن فعله: إذا قمن في يوم الاستحقاق بعدم دفع ما وقعن عليه، نهضن واحتججن، فقد تسببت في إفلاسهن،

(١) المسبار: العمال الذين يخلصون الحرير من الشرانق.
(٢) الغزال: العمال الذين يقومون بغزل وتنعيم خيوط الحرير ميكانيكيًا.



Scanned with CamScanner

وإذا لم يكن لديهن ما يخسرنه، فسوف تطلب منهن أن يدفعن لك بالصلوات: التي سوف ترسلك إلى الجنة، على الرغم من أموالك ونهبك الأسود، وأنفك المحشو بالتبغ".

وبدلاً من الاستفادة من لحظات الأزمة من أجل توزيع المنتجات بشكل عام وتوظيف شامل، سوف يتزاحم العمال، الذين يتضورون جوعًا، على طرق أبواب ورشة العمل، بوجوههم الصاخبة، وأجسادهم الهزيلة، وخطاب توسل مثير للشفقة، ينقضون على الشركات المُصنِعة: "حسنًا، يا سيد م. شاجو M.Chagot الطيب، والسيد شنايدر M.Schneider الرحيم، امنحنا عملاً، ليس بسبب الجوع، بل الشغف بالعمل هو ما يعذبنا!"، هؤلاء البائسون، الذين، بالكاد، يملكون القوة ليقفوا، يبيعون اثنتي عشرة أو أربع عشرة ساعة من العمل بسعر أقل مرتين من ثمن الخبز على الموائد. لكن رجال الصناعة الأخيار لا يتوانون عن الاستفادة من بطالة العاطلين للتصنيع بسعر بخس.

إذا كانت الأزمات الصناعية، تعقب حِقبا من العمل الشاق المُفرط بصورة قاتلة، أكثر سوادًا من الليل الذي يعقب النهار، فذلك لأنها تسفر عن ظاهرة البطالة القسرية والفاقة دون نجاة، كما تؤدي، أيضاً، إلى الإفلاس، ما دام أن الشركة المُصنعة لديها رصيد، فإنها تطلق العنان لغضب العمال، تقترض وتظل تقترض لتوفير المواد الخام للعمال. يحثون العمال على عمل كالسعار، دون أن يفكروا في كساد السوق، وأن الشركة إذا لم تستطع بيع بضائعها ، فإن ديونها ستتفاقم إلى أقصى مدى.

مثقلاً بالديون، سوف يتوسل رحمة اليهودي، وسوف يرمي نفسه عند قدميه، يقدم له دمه، شرفه. وحينها سوف يجيب روتشيلد Rothschild: "إن القليل من الذهب سوف يؤدي المهمة، لديك ٢٠٠٠٠ زوج من الجوارب، لا تستحق هذه البضاعة إلا ٢٠ فلسًا، وأنا سأشتريها بأربعة فلسات". أبرمت الصفقة، وسوف يبيعها اليهودي بستة فلسات أو ثمانية فلسات، وسوف تمتلئ الجيوب بالأوراق

المالية من فئة المائة قرش غير المُستحقَة لأحد: ولكن رب العمل قد تراجع ليقفز على نحو أفضل. وأخيرًا، سوف تحل الكارثة وتُصاب المِحلات بالكساد، ومن ثم، سوف يُلقىَ بالكثير من السلع من النافذة، والتي لا نعرف كيف دخلت من الباب أصلاً. تُقدر قيمة البضائع المُدمرة بمئات الملايين من الدولارات؛ فيَ القرن الماضي، كانت تحرَقَ أو يُلقى بها في الماء[1].

ولكن قبل الوصول إلى هذه المرحلة، كان أصحاب المصانع يطوفون حول العالم بحثًا عن منافذ لبيع السلع التي تتراكم؛ يجبرون حكوماتهم على ضم الكونغو، والاستيلاء على تونكين Tonkin، بل وهدم جدران الصين بالمدافع حتى تَبيع ما لديها من الأقمشة القطنية. في القرون الأخيرة، دار صراع قاتل بين فرنسا وإنجلترا اللذين استحوذتا على الامتياز الحصري للبيع في أمريكا والهند. في هذا الإطار، صار لَون البحار أحمر من دماء الآلاف من الشباب الفتيان الذين ماتوا خلال الحروب الاستعمارية التي امتدت طيلة ثلاثة قرون: من القرن السادس عشر، حتى الثامن عشر.

تزايدت رؤوس الأموال مثلما فاضت السلع، ولم يعرف الممولون، من بعد، أين يحطون هذه البضائع؛ ومن ثم اتجهوا إلى الأمم السعيدة التي يستمتع مواطنوها بالشمس وهم يدخنون السجائر، حتى يمدوا قضبان سكك الحديد، ويشيدوا مصانع، ويجلبون إليها لعنة العمل. ولكن، ذات صباح، أدى هذا التصدير لرؤوس الأموال الفرنسية، إلى تعقيدات دبلوماسية: في مصر وفرنسا وإنجلترا وألمانيا، والتي كانت على وشك التضارب والشجار لمعرفة أي المرابين سوف يتقاضى قر ـضه أولاً؛

---

(١) في الكونغرس الصناعية الذي عقد في برلين، ٢١ يناير ١٨٧٩، كان هناك ما يقدر ب ٥٦٨ مليون فرنك خسائر مؤكدة في صناعة الحديد في ألمانيا خلال الأزمة الأخيرة.

ووصل الأمر إلى شن حروب في المكسيك؛ حيث تم إرسال الجنود الفرنسيين ليقوموا بدور المُحضر المُكلّف باسترداد الديون المعدومة(١).

لكن هذه المآسي الفردية والاجتماعية، مهما كانت جمة ولانهائية، وربما، أبدية، كما يبدو، سوف تختفي مثل الضباع وابن آوى عند اقتراب الأسد، وذلك عندما تقول البروليتاريا: "أريد ذلك"، ولكن من أجل أن تصل البروليتاريا إلى الوعي التام بقوتها، يجب عليها أن تتخلى عن الأحكام المسبقة للأخلاقيات المسيحية والاقتصادية والعلمانية. كما يجب عليها أن تعود إلى فطرتها الطبيعية، وأن تطالب بالحق في الكسل، وهو أمر ألف وألف مرة أكثر نبلاً وقداسة ألف وألف مرة من حقوق الإنسان المُصابة بالسل التي أعدها المُدافعون الميتافيزيقيون عن الثورة البرجوازية.

على العامل أن يجبر نفسه على العمل ثلاث ساعات فقط في اليوم، ليستمتع بالتكاسل والاسترخاء أكلاً وشرباً ولهواً بقية النهار والليل.

لقد كانت مهمتي حتى الآن سهلة، فما كان عليَّ إلا أن أصف الشرور الحقيقية المعروفة لنا جميعًا، للأسف! ولكن لإقناع البروليتاريا بأن الأخلاق التي تم تلقينها إياها، فاسدة، وأن العمل المحموم الذي أقبلت عليه منذ بداية القرن هو أبشع وأفظع شيء أصاب البشرية على الإطلاق، وأن العمل لن يكون جانباً لملذات الكسل، و تمريناً مفيداً للبدن البشري، وشغفًا مفيدًا للكيان الاجتماعي، إلا إذا كان

---

(١) فى كتاب العدالة كليمنصو M. Clemenceau ، في الجزء المالي يقول في، ٦ أبريل: "لقد سمعنا تأييد هذا الرأي، لو لم تكن هناك فى بروسيا، المليارات من حرب ١٨٧٠ التي كانت ستخسرها فرنسا أيضاً وهذا في شكل قروض تصدر دوريًا لمتوازن الميزانيات الأجنبية؛ هذا هو أيضا رأينا. وتقدر خسارة رأس المال البريطاني في قروض جمهوريات أمريكا الجنوبية بخمسة مليارات. كما لم يكتف العمال الفرنسيون بإنتاج خمسة مليارات دفعت إلى م. بسمارك. لكنهم يستمرون في خدمة مصالح الحرب، إن أوليفير، وجيرارديين، وبازين وغيرهم من حاملي الأوراق المالية الذين جلبوا الحرب والهزيمة. مع ذلك، لا يزال لديهم ورقة عزاء: هذه المليارات الخمسة لن تؤدي إلى نشوب حرب الانتعاش.

منظمًا بشكل حكيم، ومحدوداً بثلاث ساعات عمل في اليوم كحدٍ أقصى. إنها مهمة شاقة تتجاوز قدراتي؛ فقط علماء الاجتماع، وعلماء الصحة، وعلماء الاقتصاد الشيوعيون يمكنهم النهوض بهذه المهمة.

في الصفحات التالية، سأقتصر على التدليل على أنه : بالنظر إلى وسائل الإنتاج الحديثة وقوتها الإنتاجية اللامحدودة، يجب إخماد عاطفة العمال الفياضة والمُتحمسة للعمل، ومن ثم إجبارهم على استهلاك السلع التي ينتجونها.



Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

# الفصل الثالث
# ما يتبع الإفراط في الإنتاج

أشاد شاعر يوناني، في عصر شيشرون Ciceron، اسمه أنتيباروس Antiparos، باختراع طاحونة الماء (لطحن الحبوب) التي سوف تحرّر الرقيق من النساء وتؤسس لعصر ذهبي:

"ادخري جهد الذراع التي تدير الرحى، يا زوجة الطحان، واخلدي إلى النوم في سلام ! حتى يصبح صياح الديك إيذاناً بالنهار بلا جدوى! لقد أجبر داو Dao الحوريات على العمل مثل العبيد، وها هن يقفزن بسعادة على العجلة، وها هو المحور يعاود الدوران بقضبانه، ومن ثم يحرك الحجر الثقيل. دعونا نحيا كحياة آبائنا، دعونا نفرح بالهدايا التي تمنحها لنا الآلهة" -

للأسف، الفراغ والعطلة التي بشر بها الشاعر الوثني لم تتحقق؛ فالحب الأعمى للعمل، هذا الحب الشرير والقاتل، أدى إلى تحويل آلة التحرر إلى أداة لاستعباد الرجال الأحرار: إذ إن إنتاجيتها قد فاقمت فقر العمال.

عاملة ماهرة تغزل بالإبرة، تقوم بخمس غرز في الدقيقة الواحدة، بعض آلات غزل الصوف تنجح في تنفيذ نحو ثلاثين ألف غرزة في الدقيقة، كل دقيقة من الآلة تعادل مائة ساعة من العمل اليدوي للعاملة، أو بالأحرى كل دقيقة عمل للآلة تمنح العاملة راحة لمدة عشرة أيام.

ما يصدق على صناعة التريكو، يصح، بدرجة أو أخرى، على جميع الصناعات التي تم تحديثها عن طريق الميكانيكا الحديثة، ولكن ماذا نرى؟ بقدر تحديث الآلة وتطورها المستمر بقدر ما تنافس عمل الإنسان وتفوقه بسرعة ودقة تتضاعف باستمرار. ولكن بدلاً من أن يؤدي ذلك إلى إطالة مدة راحته، تضاعف حماسة للعمل، كما لو كان يريد منافسة الآلة أوه! إنها منافسة سخيفة ومميتة!

وحتى تمضي المنافسة بين الإنسان والآلة بوتيرة أسرع في مجال مفتوح، ألغت البروليتاريا القوانين الحكيمة التي كانت تحدّ من عمل الحرفيين في المهن القديمة التراثية. لقد ألغوا إجازات الأعياد[1] وذلك لأن المنتجين عندها لم يعملوا سوى خمسة أيام في الأسبوع، هل يعتقدون، كما يقول لنا الاقتصاديون الكانبون، أنهم يعيشون بفضل الهواء والماء العذب، فحسب؟ – هيا لنرى! – لقد كان لديهم وقت فراغ يتيح لهم تذوق مباهج الأرض: الحب والضحك؛ مأدبة شهية على شرف إله الكسل والسرور. كانت إنجلترا الموحشة المُتخلفة في إطار البروتستانتية المتزمتة، تُسمى آنذاك "إنجلترا المرحة - ( Merry England ) "

رابيليه Rabelais كوفيدو Quevedo، وسيرفانتس Cervantes، المؤلفون المجهولون لروايات الصعلكة، كانوا يثيرون شهيتنا بلوحاتهم العظيمة المُعبرة عن هذه الملذات المدهشة، التي كنا نستمتع بها بين معركتين أو دمارين: "وفيها كل ما لذّ وطاب". هذا ما كتبه جوردانز Jordaens وأقطاب المدرسة الفلمنكية l'école

---

(١) في ظل النظام القديم، ضمنت قوانين الكنيسة للعامل ٩٠ يومًا من الراحة (٥٢ يومًا من أيام الأحد و ٣٨ يومًا أعيادا) والتي كان من المحظور العمل فيها. لقد كانت جريمة الكاثوليكية الكبرى، السبب الرئيسي في عدم تدين البرجوازية الصناعية والتجارية. فى ظل الثورة، فبمجرد أن أصبحت السيدة، ألغت عطلات الأعياد؛ وصار أسبوع العمل سبعة أيام بدلاً من عشرة. بحيث يكون للناس يوم واحد فقط يستريحون فيه كل عشرة أيام. إن العمال يتحررون من نير الكنيسة ليستعبدهم نير العمل .
لم تظهر الكراهية ضد أيام الأعياد إلا عندما أخذت البرجوازية الصناعية والتجارية الحديثة في التشكل بين القرن الخامس عشر و السادس عشر. فقد طلب هنري الرابع تخفيض الإجازات إلى البابا؛ رفض لأن "واحد من الهرطقات الجارية اليوم هو انتهاك أيام الأعياد... رسائل الكاردينالدوسات d'Ossat، ولكن في عام ١٦٦٦، أزاح بيزمكس، رئيس أساقفة باريس ألغى منها ١٧. البروتستانتية، وهي الديانة المسيحية، والتي تلبي الاحتياجات الصناعية والتجارية الجديدة للبرجوازية، كانت أقل اهتماماً بالراحة الشعبية ؛ أزاحت القديسين من على عروشهم في السماء لإلغاء أعيادهم على الأرض .
كان الإصلاح الديني والفكر الحر الفلسفي مجرد ذرائع مكنت البرجوازية اليسوعية والجافة من التراجع عن أيام الأعياد .

Flamande على لوحاتهما المبهجة. يا بطون جارجامتوا السامية، كيف أصبحت؟ أدمغة سامية تحيط بكل الفكر الإنساني، كيف أصبحتم؟ - نحن نتدهور ونتخلف، حقاً. البقرة المسعورة، والبطاطس، والنبيذ المُلون بألوان صناعية fuchsine، والكحوليات البروسية prussien المُوائمة تماماً للعمل القسري، قد أضعفت أجسادنا وأفقرت أرواحنا.

وعندها راح الرجل يقلص معدته، وراحت الآلة تزيد من إنتاجيتها، وراح الاقتصاديون يبشرون بنظرية مالتوس Malthus الاقتصادية، وراح المتدينون يدعون إلى التقشف وعقيدة العمل؟ كان يجب أن تُقطَع ألسنة كل هؤلاء، ويُلقى بها للكلاب.

وذلك لأن الطبقة العاملة، مع حسن نيتها وبساطتها، تركت نفسها فريسة للتلقين المذهبي، ولأنها مع اندفاعها الطبيعي، هرعت معصوبة العينين إلى المزيد من العمل والتقشف، ووجدت الطبقة الرأسمالية نفسها محكومًا عليها بالكسل القسري والرفاهية والمتعة، وعدم الإنتاج مع الإفراط في الاستهلاك. ولكن إذا ما كان الإفراط في عمل العامل قد أصابه بالسقم في بدنه ووتَر أعصابه، فإنه قد فاقَم، أيضاً، آلام الطبقة البرجوازية.

إن الزهد والتقشف اللذان حُكِمَ بهما على الطبقة المُنتجة، يُلزم البرجوازيين بأن يُكرسوا أنفسهم للإفراط في استهلاك المنتجات التي ينتجونها بطريقة عشوائية. قبل قرن أو قرنين من الزمان، في بداية الإنتاج الرأسمالي، كان البرجوازي رجلاً مهندمًا، يتسم بالرقة ويتحلى بعادات عقلانية مُسالمة، مكتفياً بزوجته، أو هو أقرب إلى ذلك؛ لا يشرب إلا عند عطش ولا يأكل إلا عند جوع. يترك للنبلاء والنبيلات فضائل الحياة اللاهية الخليعة .

أما اليوم، فالبرجوازي ليس مُحدث نعمة يعتقد أنه مُلزم بنشر الدعارة، وبدهن جسمه، ليعطي مثلاً وهدفاً للعمال المفروض عليهم العمل في مناجم الزئبق؛ إنه ليس هذا البرجوازي السمين الذي يأكل حتى التخمة، لحم الديوك ويعب في

النبيذ، لتشجيع مُربّيي اللحوم La Fléche ومُزارعي عنب بوردوليه Bordelais. في إطار هذه العمالة، يتدهور حال الجسم بسرعة، يتساقط الشعر، تصبح الأسنان ضعيفة، الجذع يتشوه، وتتنفخ البطون، يصعب التنفس، تثقل الحركة، يتعثر النطق، والمفاصل تتيبس. أما الآخرون، الأكثر حصافة، فلديهم يأس شديد ومذهل لتحمل عنت الفجور، لكنهم موهوبون في التعبير عن أنفسهم بطريقة عاطفية ومثيرة للسخرية؛ إذ يقدحون عقولهم مثل آل جارنييه Garnier في الاقتصاد السياسي، وآل أكولاس Acollas في فلسفة القانون، لكتابة الكتب الكبيرة المُملة التي تبعث على النعاس لشغل أوقات فراغ الموسيقيين والناشرين.

تعيش النساء الأنيقات حياة الشهداء، من أجل تجريب الملابس وإعلاء قيمة مستحضرات التجميل السحرية، وتصميم الملابس الأسطورية التي يتقاتل مصممو الأزياء على ابتكارها، إذ يمضين من الصباح إلى المساء غدواً ورواحاً من فستان إلى آخر، ولساعات طويلة، يسلمن رؤوسهن الفارغة إلى مصففي الشعر الذين يريدون، بأي ثمن، إشباع شغفهن بكعكات الشعر المستعارة، يمضين مُعذبات من جراء المشدات النسوية التي تُطبق على صدورهن وخصورهن وأردافهن، هذا علاوة على ضيق أحذيتهن وخلاعة ملابسهن العارية التي تحمر الخدود لها خجلاً، يمضين ليالي بطولها في الحفلات الراقصة الخيرية لجمع بضعة قروش لعالم الفقراء. يا لها من نفوس مقدسة!

من أجل أن تحقق البرجوازية وظيفتها الاجتماعية المزدوجة: غير المنتجة والمفرطة في الاستهلاك، كان يجب عليها ألا تطيح فقط بأذواقها المتواضعة، وأن تتخلى عن عادات المثابرة والاجتهاد، التي اعتنقتها منذ قرنين من الزمان، بل كان عليها، أيضاً، أن تغوص في الفخامة المحمومة، وأن تتحمل عسر هضم المعدة الممتلئة، وفجور المصابين بداء الزهري، وأن تستغنى، في مجال العمل المنتج، عن كتلة هائلة من الرجال، حتى تحصل على مساعدات .

وفيما يلي بعض الأرقام التي تثبت مدى هول الخسارة في القوى الإنتاجية، وفقاً لتعداد عام ١٨٦١: بلغ عدد سكان إنجلترا وويلز معاً ٢٠,٠٦٦,٢٤٤ شخصًا، من بينهم: ٩٧٧٦٢٥٩ ذكور، و١٠٢٨٥٩٦٥ إناث.

فإذا ما استبعدنا من هم أكبر وأصغر من سن العمل، أي النساء والمراهقين والأطفال غير المنتجين، ثم الوظائف الأيديولوجية مثل: المحافظين والشرطة ورجال الدين والقساوسة والجيش والدعارة والفنون والعلوم... إلخ. ومن بعد يأتي الناس المختصون، حصرياً، في نهب عمل الآخرين، وهو ما يتمثل في ريع عقاري، والحصول على فوائد ودائع، أرباح، إلخ ... ، يبقى حوالي ثمانية ملايين شخص من الجنسين ومن كل الأعمار، بما فيهم الرأسماليون الذين يعملون في الإنتاج والتجارة والتمويل... إلخ. من بين هؤلاء الثمانية ملايين، نَعدّ على التوالي:

| | |
|---|---|
| 1098261 | عمال المزارع (بمن فيهم الرعاة والخدم وفتيات المزرعة الذين يسكنون عند المزارعين). |
| 642,607 | عمال مصانع القطن والصوف والكتان والحرير والتريكو. |
| 565,000 | عمال مناجم الفحم والمعادن. |
| 396,998 | عمال التعدين (الأفران العالية الحرارة، البرادة... إلخ) . |
| 1208648 | طبقة الخدم |

"إذا ما جمعنا عمال مصانع النسيج، وعمال مناجم الفحم والمعادن، سوف نحصل على رقم ١٢٠٨٤٤٢؛ وإذا ما جمعنا عمال النسيج وعمال التعدين، سوف نحصل على ١٠٣٩٦٠٥ شخصًا، وهذا يعني أننا في كل مرة نحصل على عدد من العمال أقل من عدد العبيد أو من يسمون حديثاً بالخدم، وهذه هي النتيجة الهائلة للاستغلال الرأسمالي للآلات [١]

---

(١) كارل ماركس، رأس المال.



Scanned with CamScanner

بالنسبة إلى كل طبقة من طبقات الخدم المنزلية ، فهي تدل على الفخامة والرفاهية التي توصلت إليها الحضارة الرأسمالية، كما يجب علينا أن نضيف إلى هذه الطبقة من الخدم فئات عديدة من هؤلاء البائسين المكرسين، حصريًا، لإشباع وإرضاء المتطلبات المُغالى فيها وغير المُجدية للطبقات الثرية: نحاتو الماس، ومصممو الدانتيل، والمطرزون، ومُجلدُو الكتب الفخمة، ومصممو الأزياء الفاخرة ومهندسو ديكورات المنازل المُترفة، إلخ[1]

وبمجرد أن تتربع البرجوازية على عرش الكسل المطلق اللا أخلاقي، وشعورها بالإحباط إزاء المتعة القسرية، فإنها، وعلى الرغم من الضرر الذي تسببت فيه، سرعان ما تتكيف مع نمط حياتها الجديد. ويصيبها الرعب عندما تتخيل أي تغيير. فقد أدت رؤيتها لظروف المعيشة البائسة للطبقة العاملة وتقبلهم لها على مضض وخنوع، علاوة على التدهور العضوي والبدني الذي نجم عن الشغف بالعمل، إلى استنكار الطبقة البرجوازية لأي عمل يُفرض عليها ولأي تقييد للملذات والمتع التي تتنعم بها.

دون الأخذ بعين الاعتبار هذا الانحلال الأخلاقي الذي فرضته البرجوازية على نفسها بوصفه واجبًا اجتماعيًا، اقتنعت البروليتاريا نفسها بطرح العمل على الرأسماليين. أخذ العمال السُذّج، على محمل الجد، نظريات الاقتصاديين والأخلاقيين عن العمل، وعانوا كثيراً فرض هذه الممارسة على الرأسماليين، ورفعت البروليتاريا شعار "من لا يعمل لا يأكل"؛ ووصل الأمر، في مدينة ليون في عام ١٨٣١، إلى حد تبني شعار الرصاص أو العمل؛ ومن ثم طالب مندوبو حركة مارس١٨٧١ بالحق في العمل؛ وأطلقوا على انتفاضتهم الثورة العمالية .

---

(١) فى جمهورية أيرلندا، قبل وبعد الاتحاد (١٨١٨)؛ تشير نسبة عمل السكان كخدم، يعملون في خدمة طبقات الأثرياء، إلى تقدمهم في الثروة الوطنية وفي الحضارة (آر إم مارتن *R. M. Martin*، كما أنكر جامبيتا Gambetta، المسألة الاجتماعية، منذ توقف عن العمل كمحام، ربما أراد التحدث عن هذه الطبقة الخدمية التي لا تتوقف عن النمو باطراد عندما تحدث عن ظهور الشرائح الاجتماعية الجديدة.

مع تفاقم هذه النوبات من الغضب الهمجي، والمدمرة لكل المباهج وملذات الكسل البرجوازي، لم يستطع الرأسماليون القضاء على هذا التمرد إلا بالقمع العنيف، لكنهم كانوا يعلمون أنهم حتى لو تمكنوا من قمع هذه الانفجارات الثورية، فإنهم لن يستطيعوا أن يطمسوا بدماء مذابحهم الهائلة، هذه الفكرة السخيفة للبروليتاريا الطامحة إلى فرض العمل على الطبقات المرّقَهة والفاسدة، والتي، من أجل أن تتجاوز هذه المحنة، أحاطت نفسها بالحكام ورجال الشرطة والقضاة وحراس السجون الذين يتمتعون بحصانة عدم الإنتاجية المديدة. لم يعد بإمكاننا الحفاظ على وهم يتعلق بطابع الجيوش الحديثة؛ إذ لم يتم الإبقاء عليها دوماً إلا لقمع "العدو المحلي"؛ وهكذا لم يتم بناء حصون باريس وليون للدفاع عن المدينة ضد الأجانب، وإنما لسحقها في حال التمرد الداخلي.

وإذا ما كان ثمة حاجة لمثال دامغ على ذلك، فلنستشهد بجيش بلجيكا، هذا البلد الذي يمثل فردوس الرأسمالية؛ وحيادها مضمون من قبل القوى الأوروبية، ومع ذلك فإن جيشها واحد من أقوى الجيوش قياسًا إلى عدد السكان. كانت ساحات المعارك المجيدة للجيش البلجيكي الشجاع، في سهول بوريناج Borinage وشارلروا Charleroi: حيث غمس الضباط البلجيكيون سيوفهم في دماء عمال المناجم والعمال غير المسلحين ليحصلوا على الرتب العسكرية التي سقطت من على أكتافهم. إن الدول الأوروبية لا تملك جيوشًا وطنية، بل جيوشًا من المرتزقة تحمي الرأسماليين من الغضب الشعبي الذي يُطالب بأن يُكلفهم بالعمل عشر ساعات في التعدين أو الغزل .

وهكذا، بشدّ الأحزمة، ساهمت الطبقة العاملة في امتلاء بطون الطبقة البرجوازية، المحكوم عليها بالإفراط في الاستهلاك.

ولكي تكفّر عن أعمالها المُؤلمة، انتخبت البرجوازية مجموعة من رجال الطبقات العاملة أكبر بكثير من تلك التي بقيت مُكَرَسة للإنتاج المفيد، وزجت بهم إلى عدم الإنتاجية والإفراط في الاستهلاك، لكن هذا القطيع من الأفواه عديمة

الجدوى، على الرغم من شراهتها النهمة، لا يكفي لاستهلاك السلع كافة التي ينتجها العمال المهووسون بعقيدة العمل، فهم ينتجون مثل الممسوسين، دون رغبة في استهلاك هذه السلع، ودون حتى التفكير في ما إذا كان هناك من سيستهلكها

في ظل وجود هذا الجنون المزدوج للعمال: الاستقتال في العمل والتراخي زهدًا وتقشفًا، لم تعد المشكلة الكبرى للإنتاج الرأسمالي العثور على المنتجين ومضاعفة قواهم، ولكن المشكلة تكمن في اكتشاف مستهلكين جدد، وإثارة شهيتهم وخلق احتياجات مصطنعة لديهم، بما أن العمال الأوروبيين، الذين يرتعدون من البرد والجوع، يرفضون ارتداء الأقمشة التي ينسجونها بأيديهم، أو شرب الخمور التي يحصدون ثمارها.

يجب، إذن، على المصنعين الفقراء، أن يركضوا صوب أقاصي المعمورة، للعثور على من سوف يرتدون أو يشربون منتجاتهم. إنها بضائع بمئات الملايين، بل وبالمليارات، تلك التي تُصدرها أوروبا كل عام إلى مختلف أركان العالم الأربعة لأناسٍ لا يعرفون ماذا يفعلون بها[1]، لكن هذه القارات المُكتشفة ليست كبيرة بما فيه الكفاية، فنحن بحاجة إلى بلدان بكْر، إذ يحلم المُصنعون في أوروبا ليل نهار بأفريقيا، البحيرة الصحراوية، السكة الحديد في السودان. وبقلق بالغ، يتابعون ما أُحرِزَ من تقدم في هذا الإطار من قِبَل آل ليفنجستون Levingstone، ستانلي Stanley، دوشيلو Du Chaillu، ودو برازا de.Brazza. يستمعون، في ذهول، إلى القصص الخارقة التي تُروى عن هؤلاء المسافرين الشجعان، كم من العجائب والخوارق المجهولة في هذه "القارة السمراء"!: حقول مزروعة بأسنان

---

(١) مثالان: ١- الحكومة الإنجليزية، لإرضاء الفلاحين الهنود، الذين على الرغم من المجاعات الدورية التي خربت البلاد، شرعوا فى زراعة الخشخاش بدلا من الأرز أو القمح ، وكان عليها الانخراط في حروب دموية، لتفرض الحكومة الصينية قبول الدخول الحر للأفيون الهندى ٢- كان على البدائيين من بولينيزيا ، على الرغم من الوفيات التي نجمت عن ذلك، أن يكسوا أنفسهم ويسكروا على الطريقة الإنجليزية، كي يستهلكوا منتجات معامل التقطير في إسكتلندا وورش عمل النسيج في مانشستر.

الفيل، أنهار من زيت جوز الهند تضاهي في بريقها تلألؤ الذهب، ملايين من الأجساد السوداء، عارية كوجه دوفورDufaure أو جيررادان Girardin، في انتظار الملابس القطنية لتتحلى باللياقة، بقدر انتظارها لزجاجات الخمر، والكتاب المقدس، لمعرفة فضائل الحضارة.

لكن الكل عاجز: البرجوازيون الذين أصابتهم التخمة، وطبقة الخدم التي تتجاوز أعدادها طبقة المنتجين، والأمم الأجنبية والبدائية التي تم إغراقها بالسلع الأوروبية. لا شيء، لا شيء يمكن أن يحدث حتى تُباع جبال المنتجات المُتراكمة والأضخم من أهرامات مصر: إذ تتحدى إنتاجية العمال الأوروبيين كل استهلاك، كل إهدار. لقد أصيبت شركات التصنيع بالذعر، لا تعرف إلى أين تتجه؟ لم يعد بإمكانها العثور على أي مادة خام لإشباع شغف عمالهم العاطفي والمضطرب. في أقسام الصوف لدينا، نمزق الخرق المتسخة نصف التالفة، ونعيد نسجها لنصنع منها أغطية الأسرة، وهو ما يُقال عنه إنه من باب التجديد، وهو أمر يدوم ما دامت الوعود الانتخابية. أما في ليون، بدلاً من ترك الألياف الحريرية اللينة ببساطتها ومرونتها الطبيعية، نزيد كثافتها بتزويدها بالأملاح المعدنية التي ، تثقل وزنها بما يجعلها هشة وتقصير زمن استخدامها. جميع منتجاتنا مغشوشة لتسهيل تدفقها، وتقلل مدة استخدامها. سوف يُطلق على حقبتنا هذه: عصر التزوير، شأنها شأن أقدم العصور الإنسانية قد عُرِفَت بأسماء: العصر الحجري، والعصر البرونزي، وفقاً لنوعية إنتاجها. يتهم الجاهلون أرباب الصناعة الأتقياء بالاحتيال، في حين أن ما يحفزهم، في الواقع، هو مبدأ توفير العمل للعمال الذين لا يستطيعون الاستسلام لحياة الراحة بدون عمل. هذا الاحتيال، دافعه الوحيد هو الشعور الإنساني لدى العمال، ولكنه يجلب أرباح هائلة لأرباب الصناعة الذين يتبنونه، فإذا ما كانت نتائج هذا الاحتيال كارثية بالنسبة لجودة السلع، ومصدرًا لا ينضب لإهدار طاقة العمل البشري، فإنها تؤكد على براعة البرجوازية في ادعاء حبها للبشرية وتثمين ما تبذله في سبيلها، كما تؤكد على ضلال الحاسة الطبيعية لدى العمال الذين يرضون



Scanned with CamScanner

بهذا الوضع، لإشباع رذيلة العمل لديهم، ومن ثم يجبرون أصحاب الصناعة على قمع صرخات ضمائرهم، بل انتهاك قوانين الأمانة التجارية .

ومع ذلك، وعلى الرغم من الإفراط في إنتاج السلع، و من الاحتيال والغش الصناعي، فإن زحمة العمال تشغل السوق، متعدد الأرجاء، بما يتعذر عده، ويتوسلون: العمل! العمل! كان يجب أن تجبرهم هذه الزيادة على الكفاية، وأن يدفعهم هذا الفيض من الإنتاج، إلى كبح شغفهم بالعمل؛ ولكن ما حدث هو العكس، فقد تضاعفت لديهم حدة مرض الشغف المرضى بالعمل.

ما إن تُتاح فرصة عمل، حتى يهرعون إليها، يتكالبون على اثنتي عشرة وأربع عشرة ساعة عمل، للحصول على ما يشتهون من عمل حتى الثمالة، وفي اليوم التالي، يعادون إعادتهم مرة أخرى، إلى الرصيف. ما من شيء يكبح هذه الرذيلة. كل عام، في جميع مناحي الصناعة، تعاود البطالة ظهورها بانتظام معادل لانتظام الفصول. العمل المُفرط القاتل للكائن الحي، تعقبه الراحة المطلقة، لمدة شهرين وأربعة أشهر؛ لا عمل، وأجر زهيد ثم المزيد من العمل، والمزيد من الطعام، وبما أن رذيلة العمل مرتبطة بشكل شيطاني بقلوب العمال، فإن متطلباتها تقضي على كل الغرائز الطبيعية الأخرى؛ وبما أن حجم العمل الذي يحتاجه المجتمع محدود بالضرورة بمدى الاستهلاك ووفرة المواد الخام، فلماذا نلتهم منتجات عمل عام كامل خلال ستة أشهر؟ لماذا لا نوزعها بشكل متكافئ على مدى اثني عشر شهرا، ونجبر كل عامل على أن يكون راضياً بالعمل لمدة ست أو خمس ساعات في اليوم، خلال السنة، وبدلاً من المعاناة من التُخمة لمدة اثنتي عشرة ساعة لمدة ستة أشهر؟. واثقين من حصتهم المعتادة في العمل اليومي، لن يعاود العمال الشعور بالغيرة من بعضهم البعض قط، ولن يتقاتلوا أبدًا لانتزاع فرصة عمل من الأيادي أو لقمة عيش من الأفواه، عندها، لن تُستنفد قوى الجسد والروح، إذ سيشرعان في ممارسة فضائل الكسل .

مهووسون برذيلة العمل الشاق، لم يستطع العمال أن يرتقوا إلى إدراك واقع الأمر: وهو أنهم، من أجل الحصول على عمل للجميع، كان من الضروري تقنينه، مثل توزيع الماء على متن سفينة في محنة. ومع ذلك، دعا أرباب الصناعة، باسم الاستغلال الرأسمالي، إلى وجود حد قانوني ليوم العمل، أمام لجنة التعليم المهني في عام ١٨٦٠، وقد أعلن أحد أكبر أرباب الصناعة في الألزاسِ Alsace، السيد بوركار Bourcart، من جويبويلير Guebwiller، قائلا:

"اثنتا عشرة ساعة عمل في اليوم لهو أمرٌ مُبالغ فيه، وينبغي أن يصل إلى إحدى عشرة ساعة، كما يجب إنهاء العمل عند الساعة الثانية ظهراً في يوم السبت. يمكنني أن أنصح باعتماد هذا الإجراء على الرغم من أنه يبدو مُكلفاً للوهلة الأولى. لقد قمنا بتجريبه في منشآتنا الصناعية منذ أربع سنوات، ووجدنا أننا في هذا الإطار نقوم بعمل جيد، وقد ازداد متوسط الإنتاج، ولم ينخفض".

في دراسته للآلات، استشهد السيد باسي M. F. Passy بالرسالة التالية التي كتبها أحد كبار أرباب الصناعة البلجيكيين العظماء، وهو السيد أوتيفاير M. M. Ottevaere:

"إن ما لدينا من آلات، على الرغم من أنها مماثلة للآلات المُستخدمة في مصانع الغزل الإنجليزية، فإنها لا تنتج ما ينبغي لها أن تنتجه أسوةً بما تنتجه الآلات نفسها في إنجلترا، مع إن مدة العمل في المصانع هناك أقل بساعتين من ساعات العمل لدينا (...) نحن نعمل لساعات طويلة و أكثر من اللازم: أنا مقتنع أننا إذا ما عملنا لمدة إحدى عشرة ساعة فقط، بدلاً من ثلاث عشرة ساعة، سيكون لدينا كم الإنتاج نفسه، وبالتالي سوف ننجح أكثر من الناحية الاقتصادية".

من جهة أخرى، يؤكد السيد لوروي-بوليو M.Leroy-Beaulieu:

"إنها ملاحظة منقولة عن أحد كبار أرباب الصناعة في بلجيكا تلك التي تقول: إن الأسابيع التي تشمل إجازات رسمية لا يكون الإنتاج فيها أقل من إنتاج أسابيع العمل العادية"(١)

---

(١) بول ليروا: بوليو . القضية العمالية في القرن التاسع عشر Paul LEORY-BEAULIEU, *La Question Ouvrière au XIV siècle* ، ١٨٧٢.

ما لم يجرؤ عليه بسطاء الشعب الذين خُدعُوا بأفكار الأخلاقيين، من قبل، أبداً، تجرأت عليه حكومة أرستقراطية، مُستَهِينة بكل الاعتبارات العليا الأخلاقية والصناعية للاقتصاديين، الذين راحوا، مثلهم مثل الطيور المشئومة، ينعقون بأن قرار إنقاص ساعة من ساعات العمل المُعتادة في المصانع، هو بالأحرى، مرسوم يُعجل بخراب الصناعة الإنجليزية وانهيارها، لقد دافعت حكومة إنجلترا بصرامة ملحوظة، وبموجب قانون، عن العمل لأكثر من عشر ساعات في اليوم؛ ومن بعد كما في السابق، تظل إنجلترا أول دولة صناعية في العالم .

ها هي التجربة الإنجليزية العظيمة، ها هي تجربة بعض الرأسماليين الأنكياء، تثبت، على نحو لا يقبل الجدل، أنه من الضروري، من أجل تعزيز الإنتاجية البشرية، تقليل ساعات العمل ومضاعفة الأيام المدفوعة الأجر أيام العطلات والأعياد، غير أن الشعب الفرنسي لم يقتنع بذلك. ولكن إذا كان هذا التخفيض البائس لساعتي عمل قد أدى إلى زيادة الإنتاج البريطاني بمقدار الثلث تقريبًا في غضون عشر سنوات[1]، فما هو المسار المُذهل التي سيُجيز للإنتاج الفرنسي تخفيضًا قانونيًا لساعات العمل إلى ثلاث ساعات؟ لا يستطيع العمال أن يفهموا أنهم بالضغط على أنفسهم وبالإسراف في العمل المُفرط، يستنفدون قواهم وقوى أبنائهم، وأنهم، وقد يصبحون مرهقين، قبل وصولهم إلى سن المعاش، وعلى نحو مبكر، سوف يصبحون عاجزين عن القيام بأي عمل. وذلك لأنهم متبلدون ومُستنفدون بسبب رذيلة وحيدة، وهي الإفراط في العمل، تستهويهم وتحولهم إلى وحوش، إذ لم يعودوا رجالاً، بل أشباه رجال؛ وأنهم يقتلون في أنفسهم جميع المواهب الجميلة، ولا يتركون مزدهراً سوى الجنون المحموم بالعمل.

---

(١) هنا، وفقاً للإحصائي الشهير ر. جيفن R.Giffen، من مكتب الإحصاء في لندن، نشير إلى التقدم المتزايد للثروة الوطنية في إنجلترا وأيرلندا :

| | | | |
|---|---|---|---|
| مليار فرنك | 55 | كانت من ... | 1814 |
| مليارفرنك | 162 1/2 | - | 1865 |
| مليارفرنك | 212 1/2 | - | 1875 |



Scanned with CamScanner

مثل ببغاوات أركاديا Arcadie يرددون درس الاقتصاديين: "دعونا نعمل ونعمل من أجل زيادة الثروة الوطنية". يا أغبياء لأنكم تعملون كثيرًا، تتطور الآلات الصناعية ببطء كفوا عن النهيق، واستمعوا إلى خبير اقتصادي إنه ليس نسرًا، بل هو السيد ريبو Reybaud، الذي فقدناه منذ بضعة أشهر، لحسن الحظ، إذ كان يقول:

"بصفة عامة، ووفقاً لظروف الأيدي العاملة، تحدث الثورات في مجال أساليب العمل. ما دامت الأيدي العاملة تقدم خدماتها بأسعار زهيدة، فنحن ننفقها بسفه، كما أننا لا نعمل على استبعادها إلا عندما تصبح خدماتها أكثر تكلفة (١)

لإجبار الرأسماليين على تحسين آلاتهم المصنوعة من الخشب والحديد، كان من الضروري زيادة الأجور وتقليل ساعات عمل آلات اللحم والعظم. ما الأدلة على ذلك؟ هي بالمئات، في مصانع الغزل، اخترع (المغزل الآلي) وطُبق في مانشستر، لأن عمال الغزل رفضوا العمل لفترة أطول من ذي قبل.

في أمريكا، اكتسحت الآلة كل فروع الإنتاج الزراعي، من صنع الزبد وحتى تذرية القمح: لماذا؟

لأن الأمريكي، الحر الكسول، يفضل الموت آلاف المرات عن حياة البقر التي يعيشها الفلاحون الفرنسيون. إن الحرث المرهق الذي ينخر العظام في فرنسا المجيدة، هو في الغرب الأمريكي، عبارة عن وقت لطيف للانطلاق؛ حيث يؤدي المرء عمله وهو جالس في الهواء الطلق، يدخن غليونه بلا مبالاة.

---

(١) لويس ريبو - القطن، نظمه ومشاكله Louis RETBAUD, *le Coton, son régime, ses problèmes* (1863)

Scanned with CamScanner

# الفصل الرابع
# نحو عصر جديد، أغنية جديدة

إذا ما كنا، من خلال تخفيض ساعات العمل، نكتسب قوى آلية جديدة للإنتاج الاجتماعي؛ من خلال إجبار العمال على استهلاك منتجاتهم، فإننا سوف نستميل جيشاً هائلاً من القوى العاملة. ومن ثم سوف تسارع البرجوازية، التي ستتخفف من مهمتها المتمثلة في "المستهلك العالمي"، إلى تسريح هذه الحشود من الجنود، القضاة، المزينين، والقوادين،... إلخ، ممن سحبتهم من مجال العمل المفيد لمعاونتها على فرط الاستهلاك والإهدار. حينئذ سوف يفيض سوق العمل، وهو ما سيتطلب قانوناً صارماً لفرض حظر العمل: سوف يكون من المستحيل العثور على عمل لهذه السحابة غير المنتجة، الأكثر عددا من قمل الغابات. ومن بعد سيكون من الضروري التفكير في كل أولئك الذين كانوا يشبعون حاجاتهم وأهواءهم الفارغة والمُكلفة، عندها لن يكون هناك المزيد من المُخبرين و الجنرالات، والمزيد من المومسات عازبات أومتزوجات يرفلن في ثيابٍ من الدانتيل، كما لن يكون هناك أبدًا المزيد من صَناعة المدافع والمزيد من القصور للتشييد، وعندها سيكون من الضروري، عبر قوانين صارمة، أن يُفرض على عمال صناعة الدانتيل والحديد والمباني، أن يمارسوا رياضة التجديف وتمارين الرقص لاستعادة صحتهم وتحسين سلالتهم. وما دامت المنتجات الأوروبية سوف يتم استهلاكها في التو واللحظة في أوروبا ولن يتم تصديرها إلى الشيطان، سيصبح من الضروري أن يجلس البحارة، ورجال الشحن، وسائقو الشاحنات ليتعلموا ألا يعملوا شيئاً .

عندئذ سوف يتمكن البولينيسيون Polynésiens الأبرار من الانغماس في الحب الحر، دون خوفٍ من ركل فينوس المتحضرة لهم، ومن وخز عظات الأخلاق الأوروبية.



Scanned with CamScanner

علاوة على ذلك، من أجل الحصول على عمل لكل من لا قيمة له، من أجل السماح للآلات الصناعية بالتطور إلى ما لانهاية، يجب على الطبقة العاملة، شأنها شأن البرجوازية، أن تتخلى عن ميلها للزهد والتقشف، وأن تزيد من سعة حاجاتها الاستهلاكية إلى ما لانهاية. وبدلاً من تناول أوقية أو أوقيتين من اللحم اليابس يوميًا، إن تيسر لها أكل اللحم، سوف تأكل رطلاً أو رطلين من شرائح لحم البقر اللذيذة "البيفتيك biftecks" لقاء جنيه أو جنيهين. وبدلا من شرب النبيذ الردىء، على نحو أكثر كاثوليكية من البابا، سوف تشرب جرعات كبيرة من النبيذ الفاخر "بوردو" Bordeaux، أو "بورجوني Bourgogne، وتترك المياه للحيوانات.

لقد تمسكت البروليتاريا بتكليف الرأسماليين، بالعمل، غرامة عشرات الساعات في المسابك والمعامل. هذا هو الخطأ الكبير، وسبب الخصومات الاجتماعية والحروب الأهلية. منع العمل وليس فرضه، وهو ما سيسمح لآل روشيلد Rothschild وآل ساي Say أن يثبتوا أنهم كانوا، طوال حياتهم ، أوغاداً مثاليين، وحتى لو أقسموا أنهم يريدون الاستمرار في العيش كأوغاد مثاليين، على الرغم من التدريب العام على العمل، فسوف يتم تسجيلهم في البلدية، وسيحصلون كل صباح على قطعة نقود من فئة العشرين فرنكًا لإشباع متعهم الصغيرة. سوف تختفي الخلافات الاجتماعية، أصحاب الإيرادات، الرأسماليون، سوف يكونون الأوائل في الانضمام للحزب الشعبي، وبمجرد إقناعهم بأن الهدف ليس الرغبة في إلحاق الأذى بهم، بل على العكس، تحقيق خلاصهم من التبذير والإفراط في الاستهلاك الذي أثقل كاهلهم منذ ولادتهم. أما بالنسبة للبرجوازيين العاجزين عن إثبات أنهم من الأوغاد، فسوف يُسمح لهم بمسايرة غرائزهم: فهناك ما يكفي من المهن المُقززة التي تلائمهم، سوف يقوم دوفور Dufaure - بتنظيف المراحيض العامة ، وسوف يقوم جاليفيه Galliffet بربط الخنازير الجرباء والخيول المُتقيحة، أما أعضاء لجان العفو، فسوف نرسلهم إلى بواسي Poissy، لتحديد الثيران والغنم الصالحة للذبح؛ لكن أعضاء مجلس الشيوخ، فسوف يلحقون بخدمة دفن الموتى، وسوف ينهضون بدور حفاري القبور. بالنسبة للآخرين، سوف نعثر لهم على

وظائف تتناسب ذكاءهم. لورجريل Lorgeril، بروجليBrogeli سيفتحون زجاجات الشمبانيا، لكننا سوف نكمم أفواههم لمنعهم من شربها. فيري Ferry وفريسينيه Freycinet وتيرار Tirard سيدمرون البق، الهولم في مباني الوزارات والفنادق العامة الأخرى. ومع ذلك، سيكون من الضروري وضع الأموال العامة بعيدًا عن متناول أيدي البرجوازية خوفاً من عاداتهم المُكتسبة.

ولكن الانتقام صعب وطويل، سوف تتم مطاردة الأخلاقيين، الذين قاموا بإفساد الطبيعة البشرية والكاذبين، والصراصير، والمنافقين، "وغيرهم من طوائف الناس الذين يتكرون لخداع العالم، ويوهمون الشخص العادي بأنهم ليسوا مشغولين إلا بالإتقان والتفاني، وأنهم في حالة صيام وزهد في الشهوات، وإلا لإدامة وتدعيم إنسانيتهم الهشة: وكل هذا على عكس ما يفعلون، إنهم شديدو النهم والسكر. يتظاهرون بزهد كيروس ويعيشون في ترف باكانال. وهو ما يمكنك أن تلحظه، من خدودهم الحمراء وبطونهم المنتفخة، وحين يتعطرون بالخمر".

في أيام الأفراح الشعبية الكبرى، بدلاً من الشعور بأنه قد طفح الكيل من النزعة البرجوازية، كما كان الحال في ١٥ أغسطس و١٤ يوليو، سوف يقوم الشيوعيون والجماعيون collectivistes، (الذين يطالبون بسيطرة الدولة والشعب على جميع وسائل الإنتاج والأنشطة الاقتصادية)، راحوا يتبادلون قوارير النبيذ، يتقافزون شرائح لحم الخنزير، يُطيِّرُون الكؤوس، بينما أعضاء أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية، مع الكهنة ذوى المعاطف الطويلة والقصيرة للكنيسة الاقتصادية، والكاثوليكية، والبروتستانتية، واليهودية، والوضعية، والعلمانية، وأولئك الذين يروجون للمالتوسية malthusianisme الاقتصادية (أنصار نظرية مالتوس Malthus المعارض للتوسع الاقتصادي) والأخلاق المسيحية، المتدثرون بالأردية الصفراء، سيحملون الشموع حتى تحترق أصابعهم، يعيشون في مجاعة بجوار نساء ويلز، وعلى مقربةٍ منهم امتدت طاولات مُكدسة باللحوم والفواكه والزهور، يموتون من العطش بين البراميل التي امتلأت عن آخرها وفاضت. أربع مرات في السنة، مع

تغيير المواسم، مثل الكلاب المُصاحبة لسناني السكاكين، سوف نحبسهم في عجلات كبيرة، ولمدة عشر ساعات سنحكم عليهم بطحن الهواء. وسوف يعاني المحامون والمُشرعون من العقوبة نفسها.

في منظومة الكسل، من أجل قتل الوقت الذي يقتلنا ثانية بثانية، سيكون، هناك ودائماً، عروض ومشاهد مسرحية، دائما ودوما؛ هذا هو العمل الذي وُجد من أجل جميع مُشرِعِينا البرجوازيين، والذين سوف يتم تقسيمهم إلى فرق تجوب الأسواق والقرى، ليقدموا عروضاً تشريعية. الجنرالات يرتدون أحذية الخيّالة، والصدور مزينة بالنياشين وأنواط شرف، سيخرجون إلى الشوارع والميادين، يجندون الناس الطيبين بالتأثير والإغراء. جامبتا Gambetta وصديقه كاسانياك Cassagnac سيبتكران الكلام المنمق المعسول. أما كاسانياك، في رداء المُتواطئ الكبير، فسوف يُدير عينيه، يلوي شاربه، يتفوه بكلمات نارية، ويهدد الجميع بمسدس والده، والسقوط في حفرة بمجرد ظهوره صورة لوليز. سوف يناقش جامبت السياسة الخارجية، اليونان الصغيرة التي يتعصب لها، ويضع أوروبا في خط النار لخداع تركيا، بالإضافة إلى روسيا الكبيرة، والتي يريد أن يقضى عليها بضمها لبروسيا، جراح وكدمات ليقوم بحملته إلى الشرق، والخلاص من العدمية في الداخل؛ وبحسب السيد بيسمارك M. de Bismarck، الذي كان صالحًا بما فيه الكفاية للسماح له بالإعلان عن العفو... ثم يعرى كرشه الكبير ذا الألوان الثلاثة، سيتذكره ويسرد قصص الحيوانات الصغيرة اللذيذة، طائر الأورتولان والأكمة وكؤوس المارجو واليكيم التي طالما تجرعها لتشجيع الزراعة واستبقاء الناخبين في بيلفيل Belleville.

في الثكنات ، سنبدأ بمهزلة الانتخابات.

أمام الناخبين الذين يحملون رؤوسًا خشبية وآذان حمار، سيقوم المُرشحون البرجوازيون، متدثرين بملابس المهرج، بأداء رقصة الحريات السياسية، لا يبالون بالمتن أو الملحق في برامجهم الانتخابية بوعودها المتعددة، يطيلون الحديث،

تغرورق أعينهم بالدموع لبؤس الشعب، وبصوت يجلجل، كآلات نحاسية، يعددون أمجاد فرنسا: أما رؤوس الناخبين فأشبه بجوقة من نهيق الحمير، يصيحون بحزم: مرحباً هان! مرحبا هان! .

ثم تبدأ المسرحية الكبرى: نهب خيرات الأمة.

فرنسا الرأسمالية، الأنثى الضخمة، الشعر على الوجه والرأس أصلع، خائرة القوى، بلحمها المترهل، المنتفخ، الشاحب، عيونها باهتة، ناعسة متثائبة، مُمدَدَّة على أريكة مخملية، وعند قدميها، تقف الرأسمالية الصناعية أشبه بكائن حديدي عملاق، بقناع القرد، يلتهم على نحوٍ آلي الرجال والنساء والأطفال، وصرخاتهم الحزينة المؤلمة تُعبئ الهواء. البنوك مُحتالة: لها وجه ابن عرس وجثة ضبع ويدي خفاش جارح، يسرق بسرعة القطع النقدية من الجيوب. أما جحافل البروليتاريا البائسون، ذوو الأجساد النحيلة، والملابس الرثة، فيرافقهم رجال الدَرَك، بسيوفهم اللامعة، وتُطارَدهم جنيات الجحيم تلسعهم بسياط الجوع، يجلبون أكواما من البضائع ليضعونها تحت أقدام فرنسا الرأسمالية: براميل النبيذ، أكياس الذهب وأجولة القمح. يحمل لانجلوا سرواله في يد، ووصية برودون Proudhon (المُنظر والاشتراكي الفرنسي) في اليد الأخرى، وصحيفة الميزانية بين الأسنان، وعلى هذا النحو يقف على رأس المدافعين عن ممتلكات الأمة ويترأس حراسها، وما إن تخلصوا من أعبائهم، حتى راحوا بضربات العصي والحِراب، يدفعون بالعمال إلى الخارج، ويفتحون الأبواب لرجال الصناعة والتجار والمصرفيين. بأعداد كبيرة، يهرعون إلى الركام، يبتلعون الأقمشة القطنية، أكياس القمح، سبائك الذهب، يفرغون البراميل القذرة المثيرة، للاشمئزاز: ولما بلغوا حدهم الأقصى، فهي قذرة، مثيرة للاشمئزاز، راحوا يتهاوون في أكوام القمامة والقيء ... ثم يصعق الرعد، تهتز الأرض وتتشق، تبزغ الحتمية التاريخية؛ وبقدمها الحديدي تسحق رؤوس أولئك الذين يترنحون وينهارون، لا يستطيعون، أبدا، الهروب بعد الآن، وبيدها العريضة نجحت فرنسا في إسقاط الرأسمالية ، فتذهل، وترتعد من الخوف.



Scanned with CamScanner

إذا ما اقتلعنا من قلب الطبقة العملية الرذيلة، التي تسيطر على طبيعتها وتحطمها، سوف تنهض بقوتها الضاربة، لا للمطالبة بحقوق الإنسان، التي هي فقط حقوق الاستغلال الرأسمالي، ولا للمطالبة بالحق في العمل، وهو ليس إلا الحق في البؤس، وإنما للمطالبة بصياغة قانون صارم، يحظر على كل شخص العمل لأكثر من ثلاث ساعات في اليوم، عندها الأرض، الأرض القديمة، سوف ترتعش استبشارًا، وستشعر بكون جديد ينبثق من داخلها... ولكن، كيف نطلب من البروليتاريا التي أفسدتها الأخلاق الرأسمالية، أن تتخذ قرارًا شجاعًا، كهذا.

مثل المسيح، والتجسيد الحزين للعبودية القديمة، يعاني الرجال والنساء والأطفال من طبقة البروليتاريا، يتسلقون بمشقة، ومنذ قرن من الزمان، جبل العذاب المؤلم: منذ قرن من الزمان، والعمل القسري يحطم عظامهم، وينهك أجسادهم، ويضغط على أعصابهم. منذ قرن من الزمان، والجوع يلوى أحشاءهم، ويصيب عقولهم!... أيها الكسل، ألا تشفق على بؤسنا المديد! أيها الكسل، يا منبع الفنون والفضائل النبيلة، لتكن بلسمًا لآلام وهموم البشرية!



Scanned with CamScanner

# الفصل الخامس

# ملحـــق

علماء الأخلاق هم أناس متواضعون جدًا. إذا كانوا قد اخترعوا عقيدة العمل، فإنهم يرتابون في فعاليتها لتهدئة النفس، وإسعاد العقل، والحفاظ على الأداء السليم للكلى وغيرها من الأعضاء؛ إنهم يريدون تجربتها على المستوى الشعبي، كحيوانات التجارب، قبل تحولهم ضد الرأسماليين، الذين يعذرونهم ويسمحون لهم بالرذائل.

لكن، الفلاسفة، أيها الفلاسفة من نوع الدستة بقرش، يتساءلون: لماذا تقدح عقلك إلى هذا الحد لتوضيح الأخلاق التي لا تجرؤ أن تنصح أسيادك بالتحلي بها؟ هل تريد أن تجعل عقيدة العمل الخاصة بك، والتي تتفاخر بها أي فخر، مثارًا للحزن واللعنة، هيه..؟ دعونا نفتح كتاب تاريخ الشعوب القديمة ونتحرى كتابات فلاسفتهم ومشرّعيهم:

لا أستطيع أن أجزم، كما يقول هيرودوت Herodote أبو التاريخ، إذا كان الإغريق قد استلهموا من المصريين الازدراء الذي يستشعرونه إزاء العمل، لأنني أجد نفس القدر من الاحتقار الراسخ لدى التراقيين Thraces، السكيثيين Scythes، الفرس Perses واليديانس Lydiens . في كلمة واحدة، وذلك لأن معظم البرابرة، يرون أن أولئك الذين يتعلمون فنون الميكانيكا، وحتى أطفالهم، هي الشريحة الأدنى من المواطنين... جميع اليونانيين ترعرعوا على هذه المبادئ، لاسيما أهالي لسيدامون[1] Lacédémoniens

(1) .Hérodote, t. II, trad. LARCHER, 1876.

"في أثينا، كان المواطنون نبلاء حقيقيين، لا ينبغي لهم أن يهتموا إلا بالدفاع عن المجتمع وإرادته، مثلهم في ذلك مثل المحاربين البدائيين الذين ترجع أصولهم إليهم، وبالتالي، كان ينبغي عليهم أن يستغلوا وقتهم كله في السهر على مصالح الجمهورية من خلال قواهم الفكرية والجسدية. ومن ثم كلفوا العبيد بكل ما عدا ذلك من الأعمال والمهام. وعلى نفس المنوال في لاسيدلمون Lacédémon، لم يُسمح حتى للنساء بالحياكة أو النسج حتى لا ينتقص هذا العمل من مقامهن النبيل[1] "

لم يعرف الرومان إلا مهنتين تتسمان بالنبل والحرية، هما الزراعة والأسلحة. جميع المواطنين لهم حق في العيش على حساب الخزينة، دون أن يضطروا لسداد حاجاتهم بامتهان أيٍ من الفنون القذرة (وهو الاسم الذى يطلقونه على المهن) التي ينتمي بحق إلى العبيد. بروتوس Brutus، القديم، حتى يستنهض الشعب، اتهم، على الأخص، تاركين Tarquin، الطاغية، لأنه صنع حرفيين وبنائين من المواطنين الأحرار[2].

تشاجر الفلاسفة القدامى حول أصل الأفكار، لكنهم اتفقوا على كراهية العمل.

"إن الطبيعة، كما يقول أفلاطون، عن اليوتوبيا الاجتماعية، في كتابه "جمهورية أفلاطون"، لم تصنع صانع الأحذية أو الحداد، هذه المهن تحط من شأن الأشخاص الذين يمارسونها، إنهم مرتزقة حقراء، بائسون بلا اسم، مستبعدون من قِبَل الدولة نفسها، حتى فيما يخص الحقوق السياسية، أما بالنسبة للتجار الذين اعتادوا الكذب والخداع، فلن نعاني منهم في المدينة إلا بوصفهم شرًا لا بد منه. المواطن الذي سوف ينحط قدره بفعل تجارة المتاجر، سوف تتم ملاحقته بسبب هذه الجريمة فإذا ما اقتنع بذلك، فسوف يتم الحكم عليه بالسجن لمدة عام واحد، كما ستكون العقوبة مضاعفة مع تكرار الجرم[3]".

---

(1) BIOT, *De l'abolition de l'esclavage ancien en Occident*, 1840.

(2) TITE-LIVE, I V

(3) PLATON, *République*, I V.

في كتاب علم الاقتصاد كتب زينوفون Xénophon يقول:

"إن الأشخاص الذين ينخرطون في العمل اليدوي لا يرتقون أبدًا سلم المراتب الاجتماعية، ونحن على حق في ذلك، إذ إن معظمهم محكومٌ عليه بالجلوس طوال اليوم، بل إن بعضهم يستشعرون لهيباً مستمراً، ومن ثم لا يمكن إلا أن تتضرر أجسادهم، ومن الصعب جداً ألا يشعر العقل بذلك.

"ما الأمر المشرف الذي يمكن لمتجر أن يقوم به؟ كما يقول شيشرون Cicéron، وما الشيء الذي يمكن للتجارة أن تنجزه بأمانة؟ كل ما يُسمى بمتجر غير جدير برجل أمين(...)، إذ لا يستطيع التجار أن يحققوا ربحاً بدون الكذب، وهل هناك من أمر يدعو للخجل أكثر من الأكاذيب! لذا، يجب علينا أن نرى أنه ما من شيء حقير ودنيء أكثر من مهنة كل أولئك الذين يبيعون شقاءهم وصناعاتهم؛ لأن كل من يقدم عمله من أجل المال، يبيع نفسه ويضع نفسه في مرتبة العبيد[1]".

أما آن الأوان للبروليتاريا ، المهووسة بعقيدة العمل، أن تنصت إلى لغة هؤلاء الفلاسفة، التى تم إخفاؤها عنهم بحذر غيور: - إن المواطن الذي يعطي عمله في مقابل المال يتدهور إلى حد مرتبة العبيد، إنه يرتكب جريمة تستحق سنوات من السجن.

الرياء الديني والنفعية الرأسمالية لم يُفسدا فلاسفة هذه الجمهوريات القديمة. لقد جاهر هؤلاء بعلمهم، فهم يخاطبون الرجال الأحرار، لقد تحدثوا عن أفكارهم على نحو ساذج. أفلاطون، أرسطو، هؤلاء المفكرون العمالقة، بما في ذلك كوزان Cousins، وكارو Caro وسيمون Simon ، لا يمكن الوصول إلى الكاحا، إلا برفع النفس على رؤوس الأصابع، لقد أرادوا أن يعيش مواطنو الجمهوريات المثالية في إطار أكبر قدر من الترفيه، ويُضيف زينوفون Xénophon قائلاً:

---

(1) CICÉRON, Des devoirs, I, tit. II, chap. XLII

"يستغرق العمل كل الوقت، ومعه لن يكون لدينا وقت للتفرغ للجمهورية والأصدقاء". ووفقا لبلوتارك Plutqraue، صاحب اللقب العظيم ليكورجوس Lycurgue ويعنى: "أحكم الرجال"، ويعود إلى ما ناله من إعجاب الأجيال التالية، وذلك بسبب ما يمنحه من أوقات الفراغ لمواطني الجمهورية من خلال منعهم من ممارسة أي تجارة كانت(1).

لكن آل باستيات Bastiat، ودوبانلوب Dupanloup وبوليو Beaulieu وشركاؤهم سوف يستجيبون للأخلاق المسيحية والرأسمالية، يردون بأن هؤلاء المفكرين،، هؤلاء الفلاسفة يقرّون العبودية! " طبعاً، ولكن هل يمكن أن يكون الأمر على خلاف ذلك، بالنظر إلى الظروف الاقتصادية والسياسية الخاصة بعصرهم؟ كانت الحرب هي الحالة الطبيعية للمجتمعات القديمة، و كان على الرجل الحر أن يكرس وقته لمناقشة شئون الدولة والسهر على حمايتها والدفاع عنها. كما كانت المهن، حينها، بدائية للغاية وخشنة، بما يجعل الممارس لها يبتعد عن ممارسة واجبه كجندي ومواطن؛ ومن أجل توفير المحاربين والمواطنين، كان على الفلاسفة والمشرعين السماح بالعبيد فى جمهوريتهم البطولية. – لكن الأخلاقيين والاقتصاديين في الرأسمالية لا يعترفون بالعمل المأجور، العبودية الحديثة، ماذا عن الأجر؟ وأي الرجال يحظون بالترفيه في ظل الرأسمالية؟ إن روتشيلد، شنايد، ومدام يونسكو، عديمو الفائدة، عبيد الرذائل والخدم.

"لقد سيطر التحيز ضد العبودية على عقل أرسطو Aristote وفيثاغورس Pythagore"، كما كتبنا عن ذلك، بنبرة لا تخلو من ازدراء، ومع ذلك كان أرسطو يحلم ويستشرف، إذ يقول: "بما أن كل آلة يمكنها أن تنفذ، دون خضوع، وظيفتها الصحيحة الخاصة بها، كما تحركت روائع ديدال Dédale من تلقاء نفسها، أو كما كانت حوامل ثلاثية فولكان Vulcain تعكف عفوياً على أعمالها المقدسة فإذا، كانت

---

(1) PLATON, *République*, V *et les Lois*, III ; ARISTOTE, *Politique*, II et VII ; XÉNOPHON, *Économique*, IV et VI ; PLUTARQUE, *Vie de Lycurgue*.

مكوكات النساجين، على سبيل المثال، تنسج من تلقاء نفسها، فلن يحتاج مدير ورشة النسيج إلى مساعدة قط، ولا السيد بحاجة إلى العبيد".

حلم أرسطو هذا هو واقعنا الحالي. الآلات لدينا تتنفس النار، وأعضاؤها من الصلب الذي لا يكل ولا يمل، ذات خصوبة مدهشة، لا تنضب، وتستكمل عملها المقدس في وداعة، ومن تلقاء نفسها. ومع ذلك، ما زالت عبقرية فلاسفة الرأسمالية الكبار يهيمن عليها التحيز للعمل المأجور: أسوأ أنواع العبودية. إنهم لم يفهموا بعد أن الآلة هي المُخلص الذي يفدي البشرية، وأنها الإله الذي سيخلص الإنسان من المهن المبتذلة، و من العمل المأجور، والإله الذي سيمنحه الترفيه والحرية.



Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

# خطاب لينين Lénin في جنازة

# Paul et Laura Lafargue

# بول ولورا لافارج ٣ ديسمبر ١٩١١

## أيها الرفاق:

إني أتكلم هنا من أجل التعبير، باسم الحزب الاشتراكي – الديمقراطي العمالي الروسي، عن مشاعر الأسى العميقة لوفاة بول ولورا لافارج Paul et Laura Lafargue

في حقبة الإعداد للثورة الروسية، كان العمال الواعون، هم وكل الاشتراكيين الديمقراطيين في روسيا، قد عرفوا كيف يبجلون لافارج بوصفه أحد الدعاة الأكثر موهبةً وعمقاً ومهارة، للنظرية الماركسية، والتي برهنت بامتياز على صحة ما طرحته من أفكار، من خلال ما حققته على نحوٍ مُبهر، طيلة الصراع الطبقي في الثورة، والثورة المضادة الروسية. تحت شارة هذه الأفكار تجمعت طليعة العمال الروس، والتي، بتنظيمها لنضال الجماهير، وجهت لكمة إلى الحكم المطلق، وهزمته، ودافعت وتدافع عن قضية الاشتراكية، قضية الثورة، وقضية الديمقراطية، على الرغم من كل أوجه الخيانة، والتردد البرجوازي الليبرالي.

يحمل العمال الاشتراكيون الديمقراطيون الروس في عقولهم، ذاكرة عصرين يجتمعان في شخص لافارج: عصر سار فيه الشباب الثوري في فرنسا جنباً إلى جنب العمال الفرنسيين، باسم أفكار الجمهورية، في مواجهة الإمبراطورية، وعصر شنت فيه البروليتاريا الفرنسية، وهي مُوَجَّهة من قبل الماركسيين، حرب النضال الطبقي ضد كل ما هو برجوازي، وتتهيأ للمعركة النهائية ضد البرجوازية، من أجل إقرار الاشتراكية.

بالنسبة لنا، نحن الاشتراكيين الديمقراطيين الروس، فقد تحملنا اضطهاد واستبداد الحكم المطلق، المطبوع بطابع البربرية الآسيوية؛ وكان لنا الشرف أن ننهل من أعمال لافارج وأصدقائه، ومن المعرفة المباشرة للخبرة والفكر الثوري للعمال الأوروبيين، حتى بدا لنا، الآن، من البديهي، أن نصر القضية، التي دافع عنها لافارج وكرس حياته لها، آتٍ عن قريب. لقد افتتحت الثورة الروسية عصر الثورات الديمقراطية في كل آسيا، والآن يشارك ٨٠٠ مليون شخص في الحركة الديمقراطية، في كل العالم المتحضر. وفي أوروبا، تتضاعف أكثر فأكثر العلامات المُبشرة بنهاية عصر هيمنة النزعة البرلمانية البرجوازية، التي يُقال عنها، إنها مُسالمة. هذا العصر سيُخلي مكانه لعصر جديد من المعارك الثورية للبروليتاريا، المُنظمة، والمُشبَعَة بروح الأفكار الماركسية، التي سوف تنقلب على السلطة البرجوازية و تؤسس النظام الشيوعي(١).

(1) Paru dans *Le Social-démocrate*, 21/28 décembre 1911.

## المؤلف فى سطور:

### بول لافارج (١٨٤٢ - ١٩١١)

صحفي فرنسي، وعالم اجتماع، وناقد أدبي، ماركسي واشتراكي ثوري، وهو زوج لورا ماركس ابنة مُنظر الاشتراكية كارل ماركس. ذاعت شهرته بفضل كتابه "الحق في الكسل" ، الذي نشِر في عام ١٨٨٠، ولكنه في عمر ٦٩ سنة توفي مع زوجته لورا باتفاق انتحاري .

## من أهم أعماله:

- Bourgeois Sentimentalism, L'Egalité (1881)
- Le droit à la paresse, 1880 (revised 1883)
- Le matérialisme économique de Karl Marx, 1883
- Cours d'économie sociale, 1884



Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

## المترجم فى سطور:

**محمد حسونة**

باحث مصري في مجال التكنولوجيا الحيوية والخلايا الجذعية. كاتب مقالات تبسيط علوم ومُترجم علمي. وكاتب روائي. خريج مدرسة الفرير بالظاهر ٢٠٠٥، القاهرة والجامعة الألمانية بالقاهرة- قسم التكنولوجيا الحيوية ٢٠٠٩. حاصل على شهادة الماجستير من جامعة باريس ٦ (Pierre et Marie Curie) بفرنسا في الخلايا الجذعية. ويقوم بدكتوراه في نفس المجال بجامعة القاهرة.

## من أهم المقالات:

- جهاز كشف "فيروس سي" المصري ' El Arabi el Almy Magazine, May 2014, Issue No. 29.

- اكتشاف جديد لمفهوم الصحة والعافية El Arabi el Almy Magazine, Apr 2014, Issue No. 28.

- منظور جديد لوسائل النقل بين الخلايا Anew prospect to the cell transport'' 'El Arabi el Almy Magazine, Jan 2014, issue No. 25.

- صناعة الأعضاء... حلم أم حقيقة Creation of human organs... Reality or Imagination?'' El Arabi el Almy Magazine, Nov 2013, Issue No.23. "? June 2013/ Introduction and translation of "Human Brain" issue in "Wasla" Magazine.

- مجدي يعقوب يبتكر صمامات قلب من الخلايا الجذعية Magdi Yacoub creates heart valves from stem cells", " " El Arabi el Almy, May 2013, issue 17.

- استنساخ البشر في عام ٢٠٦٠ El Arabi el ""Human Cloning 2060", Almy, Mars 2013, issue 15.



Scanned with CamScanner

- الصدفة في قلب الخلية "The Hazard in the heart of the cell", " El Arabi el Almy, February 2013, issue 14.

- جائزة نوبل في الطب ٢٠١٢ تمنح لعلم الخلايا الجذعية "Nobel Prize in Medcine 2012 is crowning Stem Cell Science" " in El Arabi el Almy, December 2012, issue 12.

- الخلايا الجذعية تبقي حية بعد موتنا November 2012/ "Mort, nos cellules souches survient à notre décès » " " translation article from Science et Vie Magazine, published in the electronic magazin « Science and Fiction Magazin », the 4th Edition

البروليتاريا، هي أكبر طبقة في المجتمع، إذ تضم كل المنتجين في الدول المتحضرة. وهي أيضًا الطبقة التي بتحريرها ستتحرر البشرية من العمل الشاق، وسيتحول الحيوان الانساني الى كائن حر. لقد خانت طبقة البروليتاريا غرائزها، وفي جهلها بمهمتها التاريخية انحرفت عن مسارها وصارت نهبًا لدوجما العمل. ومن ثم كانت العاقبة فظة وخيمة، إذ تتبع كل الناس الفردية والمجتمعية من الشغف بالعمل الشاق والمتواصل.

بول لافارج